

سلسلة ولكن شيء وقر في قلبه

حسي الله

التوكل

سلسلة «ولكن شريءٌ وَقَرَّ في قلبه»

الكتاب الرابع

حسبي الله

التوكل

تأليف وتوزيع مدارج
هذا الكتاب وقف لله تعالى

الفهرس

إهداء	٩
مقدمة	١٠
قبل أن تبدأ	١٢
الباب الأول: من اليقين إلى التوكل	١٣
١ — ماذا يفعل القلب بعدما أيقن؟	١٤
٢ — ثمرة اليقين	١٦
٣ — اعتماد لا دعوى	١٨
٤ — القلب والجوارح	٢٠
٥ — ما التوكل وما الذي ليس منه؟	٢٢
٦ — إياك نستعين	٢٤
الباب الثاني: حَسْبِيَ اللَّهُ	٢٩
٧ — معنى الحسب	٣٠
٨ — الوكيل سبحانه	٣١
٩ — الحي الذي لا يموت	٣٢
١٠ — الق يوم الذي تقوم به الأشياء	٣٤
١١ — كفاية لا تحدد أنت صورتها	٣٦
١٢ — حسبنا الله ونعم الوكيل	٣٨
الباب الثالث: الأسباب لا تملك نفسها	٤٢
١٣ — فإذا عزم فتوكل	٤٣
١٤ — وشاورهم في الأمر	٤٥

٤٦.....	١٥ — يعقوب والأبواب المتفرقة
٤٨.....	١٦ — مريم وهز الجذع
٥٠.....	١٧ — الطير ت غدو
٥٢.....	١٨ — بين السبب ورب السبب
٥٦.....	الباب الرابع: قلوب الأنبياء
٥٧.....	١٩ — نوح أمام قومه
٥٩.....	٢٠ — هود لا يخاف كيدهم
٦١.....	٢١ — شعيب يريد الإصلاح
٦٣.....	٢٢ — رسل قد هداهم الله
٦٥.....	٢٣ — مؤمن آل فرعون يفوض أمره
٦٧.....	٢٤ — وتوكل على العزيز الرحيم
٧٠.....	الباب الخامس: حين يخي فك الناس
٧١.....	٢٥ — إن الناس قد جمعوا لكم
٧٣.....	٢٦ — الخوف الطبعي لا يهدم القلوب
٧٥.....	٢٧ — الرجل والسيف
٧٧.....	٢٨ — خبيب في الأسر
٨٠.....	٢٩ — أصحاب الكهف يهاجرون بدينهم
٨٢.....	٣٠ — الخندق والعمل تحت الحصار
٨٦.....	الباب السادس: الخطة والتفويض
٨٧.....	٣١ — الهجرة خطة كاملة
٨٩.....	٣٢ — أسماء تحمل الزاد
٩١.....	٣٣ — الدليل الذي يعرف الطريق
٩٣.....	٣٤ — السر لا ينقض الصدق

٣٥ — الحديبية وما خفي من الفتح	٩٤.....
٣٦ — إذا عزمت فلا تبق أسير التردد	٩٦.....
الباب السابع: الرزق والعمل	٩٩.....
٣٧ — من يرزق القلب؟	١٠٠.....
٣٨ — العمل الحلال عبادة	١٠٢.....
٣٩ — المهنة وكرامة الإنسان	١٠٤.....
٤٠ — حين يفقد الإنسان وظيفته	١٠٥.....
٤١ — الدين وخطة الوفاء	١٠٧.....
٤٢ — الادخار ومسؤولية الأهل	١٠٩.....
الباب الثامن: المرض والعافية	١١٢.....
٤٣ — التوكل لا يلغي الألم	١١٣.....
٤٤ — تداووا عباد الله	١١٤.....
٤٥ — الرقية والاسترقاء	١١٦.....
٤٦ — الطاعون والاحتراز	١١٨.....
٤٧ — حين لا ينجح العلاج	١٢٠.....
٤٨ — العافية فضل لا استحقاق	١٢١.....
الباب التاسع: البيوت والعلاقات	١٢٤.....
٤٩ — توكل الوالدين لا إهمالهما	١٢٥.....
٥٠ — تربوية تعمل ولا تملك الهداية	١٢٦.....
٥١ — الزواج بين الاستخارة والمشاورة	١٢٧.....
٥٢ — حين يتعلق القلب بشخص	١٢٩.....
٥٣ — الحدود والحقوق	١٣٠.....
٥٤ — أن نترك الناس لله	١٣١.....

..... ١٣٤	الباب العاشر: القرار والقلق
..... ١٣٥	٥٥ — احرص على ما ينفعك
..... ١٣٧	٥٦ — استعن بالله ولا تعجز
..... ١٣٨	٥٧ — ما بعد الاستخارة
..... ١٣٩	٥٨ — القلق الذي يعيد السؤال
..... ١٤٠	٥٩ — الفرق بين الحذر والوسواس
..... ١٤١	٦٠ — سلام القلب بعد بذل الوسع
..... ١٤٤	الباب الحادي عشر: مراتب التوكل وآفاته
..... ١٤٥	٦١ — توكل في الطاعة
..... ١٤٦	٦٢ — توكل في ترك المعصية
..... ١٤٨	٦٣ — توكل في الدعوة والإصلاح
..... ١٤٩	٦٤ — الركون إلى السبب
..... ١٥٠	٦٥ — ترك السبب
..... ١٥١	٦٦ — دعوى الكرامة وضمان النتائج
..... ١٥٤	الباب الثاني عشر: قلب يسيّر بالله
..... ١٥٥	٦٧ — التوكل والإخلاص
..... ١٥٦	٦٨ — التوكل والمراقبة
..... ١٥٧	٦٩ — التوكل واليقيين
..... ١٥٨	٧٠ — التوكل والصبر والرضا
..... ١٦٠	٧١ — التوكل والإنابة
..... ١٦١	٧٢ — على الله توكلنا
..... ١٦٤	الباب الثالث عشر: التوكل في حياة اليوم
..... ١٦٥	٧٣ — الانتظار الذي لا تملكه

١٦٧.....	٧٤ — الأخبار والتهويل
١٦٩.....	٧٥ — الأرقام حين تصبح سيّداً
١٧١.....	٧٦ — التقنيّة والذكاء الاصطناعي والأسباب الجديدة
١٧٣.....	٧٧ — الفقد وما بعده
١٧٥.....	٧٨ — العمل الجماعي والثقة
١٧٧.....	٧٩ — حين تتعدد الأبواب
١٧٩.....	٨٠ — آخر ما يتعلمه المتوكل
١٨١.....	٨١ — بعد الإنجازيأتي امتحان آخر
١٨٣.....	٨٢ — المحاولة الثانية
١٨٥.....	٨٣ — الخسارة المالية
١٨٧.....	٨٤ — النجاح حين يخدع القلب
١٨٩.....	٨٥ — الدعاء ليس بديلاً عن القرار
١٩١.....	٨٦ — الشكر بعد الفتح
١٩٣.....	٨٧ — الصمت والكلام كلاهما سبب
١٩٥.....	٨٨ — السفر والمخاطر اليومية
١٩٧.....	٨٩ — المسؤولية لا تسقط بالتفويض
١٩٩.....	٩٠ — مساء المتوكل
٢٠١.....	٩١ — الدعاء للآخرين وترك التملك
٢٠٢.....	٩٢ — التوكل حين لا يوجد خيار جيد تماماً
٢٠٣.....	٩٣ — إذا طال الطريق
٢٠٤.....	٩٤ — حين يسيء الناس فهمك
٢٠٦.....	٩٥ — الفراغ بعد القرار
٢٠٨.....	٩٦ — الشجاعة في طلب المساعدة

٢١٠.....	٩٧ — حين لا تستطيع إصلاح الماضي
٢١٢.....	٩٨ — أول الصباح: استعانة وسعي
٢١٤.....	٩٩ — كفاية لا نُملِي صورتها
٢١٦.....	١٠٠ — التوكل ليس نهاية السؤال
٢١٨.....	١٠١ — كلمة أخيرة قبل الخاتمة
٢١٩.....	تدريب التوكل ومتابعتة
٢٥١.....	خاتمة
٢٥٢.....	المصادر والمراجع

إهداء

إليك، يا من أرهقك التفكير فيما سيأتي، وأتعبك أن تبذل ثم لا تعرف ما الذي تؤول إليه الأمور.

إليك حين تضيق بك الأسباب، وحين تتسع حتى تكاد تنسيك رب الأسباب. إليك في أول الطريق حين تتردد، وفي منتصفه حين يطول الانتظار، وعند نهايته حين تأتي النتيحة على غير ما أردت.

نهديك هذه الصفحات بمحبة. نحن وإياك فقراء إلى الله، لا تستقيم قلوبنا بقوتنا، ولا تغنينا خططنا عن عونه. نأخذ بما أذن به، ونسأله أن يجعل اعتمادنا عليه وحده، وأن يرزقنا عملاً صادقاً وقلباً ساكناً إليه.

وإن وجدت في الكتاب ما ردّ قلبك إلى الله، فاذكرنا بدعوة؛ لنا ولوالدينا، ولكل من أعان على وصوله إليك. نسأل الله أن يكفيننا بحلاله عن حرامه، وبفضله عمن سواه، وأن يجعل آخر قولنا في كل أمر: حسبنا الله ونعم الوكيل.

هذا الكتاب وقفٌ لله تعالى

تأليف وتوزيع مدارج

مقدمة

ليس أشرق على الإنسان من أن يعمل في أمر لا يملك نتيجته. يزرع ولا يخلق الثمرة، ويتداوى ولا يملك الشفاء، ويربي ولا يفتح القلوب، ويخطط ثم يقع ما لم يكن في الخطة. وبين يديه أسباب أمره الله بها، وفوقها قدر لا يحيط به، وفي صدره قلب يريد أن يطمئن.

هنا يأتي التوكل. ليس كلمة تقال عند العجز وحده، ولا ستارًا يغطي التقصير، ولا وعدًا بأن تأتي الحياة على الصورة التي اخترناها. هو عبودية القلب وهو يسير: يعرف ربه، ويستعين به، ويفعل ما يقدر عليه، ثم لا يسلم باطنه للسبب ولا للنتيجة. إن تيسر الأمر حمد، وإن تأخر لم يتهم ربه، وإن صرف عنه شيء علم أن علم الله أوسع من علمه.

سبق لهذا القلب أن تعلم الإخلاص، ليستقيم قصده لله؛ وتعلم المراقبة، ليعبد الله كأنه يراه؛ وتعلم اليقين، ليستقر خبر الله ووعدده في داخله. ثم بقي سؤال العمل: ماذا يصنع القلب بعدما أيقن؟ والجواب أن يتوكل. ومن ثمرات اليقين أن يعتمد القلب على الله فيما يقدر عليه؛ فلا تبقى معرفته من فصلة عن اختياره وعمله.^١

سنرى في القرآن أن الأنبياء عليهم السلام جمعوا بين أشد العمل وأصدق الاعتماد. وسنرى في هجرة النبي محمد ﷺ خطة دقيقة لا تناقض السكينة، وفي مريم عليها السلام يدًا تهز

١. ينظر: ابن القيم، مدارج السالكين، منزلة اليقين، ٢/٣٧٥.

الجزع وقلباً يتلقى رزق الله، وفي يعقوب عليه السلام
أبواباً متفرقة لا ترد قدرًا ولكنها تؤدي حق السبب.
وسنعود إلى أعمالنا وبيوتنا ومرضنا وقراراتنا؛ لأن التوكل
لا يسكن كتب الرقاق وحدها، بل يحتاجه الإنسان عند رسالة
ينتظر جوابها، ودواء يخشى نتيجته، وولد لا يملك
هداياته.

لا نريد قلباً يحتاج للأسباب، ولا قلباً يعبدها. نريد قلباً
يعمل بها لأنها من قدر الله، ويعتمد على الله لأنها لا تملك
نفسها. وهذا هو الطريق الذي تمضي فيه هذه الصفحات: أن
تؤدي ما عليك، وأن تدع لله ما ليس إليك.

قبل أن تبدأ

التوكل ليس تدريباً على تجاهل الواقع، ولا وعداً بأن تأتي النتائج كما نريد. إنه عبادة تجمع بين صدق الاعتماد على الله وصدق القيام بما أمر به.

ستجد في هذه الصفحات أن الجوارح تعمل بالأسباب، بينما يعرف القلب أن الأسباب لا تستقل بصنع النتائج. لذلك لا يبرر التوكل العجز، ولا يبرر إهمال العلاج أو الحقوق أو التخطيط، كما لا يبرر التعلق المذل بالخلق.

ما كان قصة أو خبراً روي في حدود ما ثبت، وما كان تطبيقاً معاصراً فهو تقریب للمعنى لا ادعاء لمعرفة الغيب. والغرض أن يخرج القارئ بقلب أخف من حمل النتائج، ويد أكثر صدقاً في العمل.

الباب الأول: من اليقين إلى التوكل

إذا قلت إنك تؤمن بأن الرزق بيد الله، ثم حملك خوف الرزق على الحرام، فلم يؤدي يقيئك عمله كاملاً. وإذا أيقنت أن القلوب بيد الله، ثم تعلق بمرضاً إنسان حتى عصيت ربك، بقي في اعتماذك خلل. لا يطلب منك التوكل أن تغيب عن الواقع، بل أن ترى الواقع كله: ترى السبب، وترى فوقه مشيئة الله. ابدأ من السؤال الصغير الذي أمامك اليوم: ما الواجب الذي أعرفه وأؤخره لأنني أريد ضمان النتيجة؟ افعل ما تستطيع، واستعن بالله. ليست الطمأنينة شرطاً يسبق كل حركة؛ كثيرون ما تولد الطمأنينة وأنتم تمشي في طاعة الله.

ثمرة اليقين

الثمرة لا تنفصل عن أصلها. من عرف الله بأسمائه وصفاته، وعلم رحمته وحكمته وقدرته، أمكنه أن يسكن إليه. أما من جعل التوكل مجرد تمرين نفسي، فقد طاب ثمرة بلا شجرة. ولهذا كان إصلاح المعرفة بالله أول الطريق. قال سبحانه:

﴿وَلِلَّهِ غِيَبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾^٣

الغيب لله، وإليه يرجع الأمر، وعمل العبد لا يغيب عنه. وفي هذا السياق جاء الأمر بالعبادة والتوكل معاً: لا يكفي أن تعرف الصواب، بل تحتاج إلى عون الله لتحبه وتثبت عليه، وأن تتعلم أن ما خفي عليك لم يخف على ربك.

حين يتبدل مزاجك، أو تثقل الطاعة، أو يشترط ضغط الناس، تظهر قيمة اليقين. إن كنت تتعلم أن الله يرى، ويعلم، ويجزي، فلست مضطراً إلى أن يفهم كل الناس موقفك قبل أن تثبت عليه. وإن كنت تتعلم أن خزائنه لا تنفذ، فلست مضطراً إلى أن تجعل باباً واحداً من أبواب الرزق نهاية العالم.

التوكل ليس زيادة تجميعية في الإيمان. إنه أثر العلم بالله
حين ينزل إلى موضع الخوف والرغبة والقرار. وكلما وجدت
قلبك يتبعثر، فارجع إلى الأصل: من ربك؟ ماذا وعد؟ وما الذي
أمرك به الآن؟

اعتماد لا دعوى

يسهل أن يقول الإنسان: توكلت على الله. وأصعب من الكلمة أن يرى قلبه عند اضطراب الأسباب. قد يقولها ولسانه يكررها، لكن باطنه لا يهدأ إلا إذا رضي عنه صاحب نفوذ، أو ظهر الرقم الذي يطمئن به، أو جاءت النتيجة التي اختارها.

قال الله تعالى:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾^٤

وصف يدخل إلى القلب: وجل عند ذكر الله، وزيادة إيمان عند سماع آياته، واعتماد عليه. فلا يبغي أن يكرر المرء كلمة التوكل بي نما لا يدع لهذا الإيمان أثراً في اختياره.

والدعوى تمتحنها الطاعة. من صدق توكله لم يجعل خوفه حجة لتترك الواجب، ولم يجعل أمله ذريعة للكسل. يرضى وقد يرتجف قلبه، ويستشير وقد يظل بعض الأمر خافياً، ويعتذر إذا أخطأ؛ لأنه لا يستخدم اسم التوكل ليحمي صورته.

لا تفتش عن شعور كامل لا يزاحمه قلق. فتش عن جهة
قلبك وعن اختيارك عند القلق. قد تخاف ثم تستعين
بالله وتفعل الصواب؛ وهذا من التوكل. وقد تبدو ساكناً لأنك
لا تبالي بالواجب؛ وهذا ليس منه.

القلب والجوارح

محل التوكل القلب، لكن صدقه يترك أثراً في الجوارح. القلب يعتمد، واليدين تعمل، واللسان يسأل الله، والعقل ينظر في العواقب. فإذا انفصل بعضها عن بعض فسد الميزان: عمل بلا افتقار يصنع العجب، وافتقار مدعى بلا عمل يصنع التواكل.

قال رسول الله ﷺ:

«الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلِّ خَيْرٍ احِرْصٌ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَأَسْتَعْنُ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا. وَلَكِنْ قُلْ قَدَرَهُ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ».

يجمع الحديث بين الحرص والاستعانة، ثم يرشد القلب حين يقع المكروه. تأخذ بأسباب ما ينفعك، وتسأل الله العون، ولا تجعل ما فات باباً للاعتراض على قدره. ومراجعة الخطأ لتصحح به غير التحسر الذي يعيد عليك الماضي ولا يغير عملك.

قبل وقوع الأمر لك عمل، وبعد وقوعه لك عبادة أخرى. قبل الامتحان تدرس، وبعد النتيجة تحمد أو تصبر وتراجع أسبابك. قبل العلاج تسأل الطبيب وتتحرى، وبعد ما يقع

لا تأكل نفسك بالاعتراض. هكذا يجمع التوكل بين الجِد
قبل ظهور النتيجة، والتسليم لله فيما وقع، مع إصلاح ما
يمكن إصلاحه.

إنما يضطرب كثير منا لأنه يريد أن يؤدي عمل القلب
والجوارح معاً، ثم يريد أيضاً أن يتولى النتيجة. والنتيجة
ليست وظيفته. افعل ما كُلفت به، واترك لله ما اختص به.

٥. صحيح مسلم، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير
لله، رقم ٢٦٦٤؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

ما التوكل وما الذي ليس منه؟

التوكل صدق اعتماد القلب على الله في جلب النفع ودفع الضرر، مع الثقة به وفعل السبب المأذون. وهو عبادة لا تصرف إلا لله. أما أن توكل إنساناً في بيع أو شراء أو قضاء حاجة في قدر عليها، فذلك توكل جائر، لا عبادة قلبية.

وليس التوكل أن تضمن على الله صورة بعينها. قد يطلب الإنسان عملاً، ويستخير، ويبدل، ثم لا يحصل عليه. لا يجعل إغلاق الباب دليلاً على الخذلان؛ فهو لا يحيط بما في صرفه عنه. قال تعالى:

{فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوِي عَدْلٍ مِّنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۚ}

{وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۚ}.

٦. الطلاق: ٢-٣؛ وينظر تفسير ابن كثير للآيتين.

جاء الوعد في سياق يأمر بحفظ الحقوق وإقامة الشهادة
والتقوى؛ فلا تنفصل ثقة القلب عن أمانة العمل. والكفاية
من الله لا تعني أن يحدد العبد لها صورة ووقتاً ثم يحاكم وعد
ربه إليهما.

وليست منه ترك السبب، ولا تعظيم السبب. الدواء لا يشفي
بنفسه، لكنه سبب شرعه الله. والخطة لا تخلق النجاح، لكنها
من الأمانة. والدعاء ليس بديلاً عن رد الحقوق، بل يعينك على
ردها. كلما أغراك طرف من الطرفين، تذكر أن الأسباب خلق الله،
وأن الأمر لله.

يمكنك أن تختبر المعنى في جملة واحدة: هل أقوم بما أقدر
عليه من غير أن يركن قلبي إليه؟ إذا فعلت، فأنت تتعلم
التوكل.

وتعرف من زلة السبب من دليله وحال الإنسان: فمن الأسباب ما
يجب لأداء حق أو دفع ضرر، ومنها ما يستحب أو يباح، ومنها
ما يحرّم. فلا تسمّ ترك النفقة الواجبة أو التفريط في حق
لازم توكلًا، ولا تجعل كل سبب ممكن واجباً على كل أحد.
والتداوي له تفصيله بحسب الحال؛ تسأل فيه الجهات
المؤهلة، ولا يحسمه شعار عام عن قوة الإيمان.

كما أن استعمال السبب لا يعني تعلق القلب به. يمكن للعبد أن
يراجع طبيباً، ويستشير خبيراً، ويعد خطة دقيقة، ثم
يبقى في باطنه عالماً بأن هؤلاء كلهم أسباب لا يملكون
استقلالاً نفعا ولا ضرراً. هذا هو موضع العبادة: أن تعمل اليدين،
ويستند القلب إلى الله.

إياك نستعين

نقرأ في صلاتنا:

{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}.^٧

نعبد الله ونطلب منه العون؛ فلا نستغني بقوتنا عن توفيقه، ولا نجعل طلب العون عذراً للإعراض عن أمره. نسأله حاجات الدنيا والآخرة، ونتحري في طلبنا ما أباحه لنا. حين يسأل العبد ربه العون ثم يقوم إلى طاعته، يجد لكل من الدعاء والعمل مكانه. وإذا أحسن حمد الله على توفيقه، وإذا قصر رجع إلى ربه وأصلح تقصيره؛ فلا يحتج بالقدر على ما اختاره من مخالفة.

تظهر الاستعانة في الصلاة التي تثقل، وفي كلمة الحق التي تخاف عاقبتها، وفي عادة تريده تركها ولا تثق بقوتك. قل: يا رب أعني، ثم أغلق الباب الذي أتيك منه الحرام. أسأله الثبات، ثم اصحب من يعينك عليه. اجمع بين الدعاء والخطوة؛ فالله هو الذي خلقهما وجعل بهما بلوغ الخير.

ابدأ يومك بسؤال الله العون على أمانة تنتظره، ثم أقبل عليها. ومن عرف حاجته إلى ربه لم ير في الدعاء إقراراً بالعجز عن العمل، بل طلباً للقوة التي يعمل بها.

٧. الفاتحة: ٥.

والاستعانة أوسع من طلب الفرج بعد وقوع الأزمة؛ إنها بداية الطريق قبل أن نخطو. نستعين بالله على أن نختر الصواب، وعلى أن نثبت عليه، وعلى أن نحسن السبب، وعلى أن نسلم إذا جاءت النتيجة بغير ما أردنا. لذلك كان التوكل عبادة ملازمة للطاعة نفسها، لا مجرد دواء للقلق.

وقفه الباب الأول | حين يتحول اليقيني إلى اعتماد

قد تظلت تجمع المعلومات لأن القرار يثقل عليك، لا لأنك تحتاج إلى معلومة جديدة. تراجع ما عرفتته مرارًا، وتطلب من كل رأي أن يضمن ما سيأتي. وحين يحين وقت العمل يكتشف القلب أن الطمأنينة التي ينتظرها لا تأتي من الإحاطة بكل احتمال؛ فهذه إحاطة لا يملكها. يكفي أن يتحرى ما يلزمه، ويستشير من يحسن المشورة، ثم يقدم مستعيناً بالله.

ولا يطلب منك التوكل قرارًا لا يحتاج أبدًا إلى تصحيح. قد يظهر لك ما لم تعلم، فتغير خطتك أو تعتذر أو تستدرك حقًا. الخطأ الذي تتعلم منه لا يجعل رجوعك إلى الله دعوى؛ وإن ما يفسد الأمر أن تحتمي بكلمة التوكل ل تمنع أحدًا من تنبيهك. من استعان بربه قبل القرار يحتاج إلى عون في مراجعة قراره أيضاً.

خذ موقفاً قريباً: وعدت أحداً بأنجاز عمل في موعد، ثم بان أن الوقت لا يكفي. تستطيع أن تصارحه مبكراً، وتبين ما أنجزت، وتقرح موعداً تقدر عليه. ولا تستطيع أن تضمن رضاه أو أن تمنع كل لوم. التوكل هنا أن تؤدي حق الصدق وتحسن الاستدراك، من غير أن يحمل خوف اللوم لسانك على وعد آخر لا تفي به. هذا تطبيقي للمعنى، لا خبر عن واقعة بعينها.

وقد يبقى في صدرك خوف وأنت تفعل الصواب. لا تجعل أول شعور يرد عليك حكماً نهائياً على توكلك. انظر إلى ما تختاره بعده: هل تستعين بالله، وتحفظ الحق، وتسلك السبب المشروع؟ ثم ارفق بنفسك حين تحتاج إلى مشورة أو مساندة. ليست سلامة القلب في ادعاء أنه لا يتألم، بل في رجوعه إلى الله مع ألمه.

وفي آخر اليوم اسأل عما تركه هذا الاعتماد في عملك: هل كنت أصدق في وعدك؟ هل أصلحت ما استطعت؟ هل صرفك انتظار النتيجة عن حق حاضر؟ من هذه المواضع الصغيرة يبدأ تغير كبير؛ يصبغ التوكل عبادة تصحبك في القرار، لا عبارة تحفظها لما بعده.

تطبيقات الباب الأول | مسؤوليتك وحدودك

اختر أمرًا واحدًا يشرغل قلبك هذه الأيام، ولا تبدأ بمحاولة حل الحياة كلها. اكتب على ورقة عمودين: «ما أستطيع فعله» و«ما لا أتحكم فيه نتيجته». في الأول ضع الأفعال التي تستطيعها بالفعل: اتصال، مراجعة، اعتذار، دراسة، استشارة، دعاء، تنظيم وقت، إغلاق باب محرم. وفي الثاني ضع ما لا يمكنك التحكم به: قبول الناس، توقعات النتيجة، تبديل الظروف، سلامة كل احتمال. ثم راقب أين تستهلك طاقتك. كثير من القلق ينشأ لأننا نقيم في العمود الثاني ونترك الأول.

بعد ذلك اختر خطوة واحدة من العمود الأول ونفذها في وقت محدد. لا تجعل الشعور الكامل شرطًا. إن كنت تنتظر ردًا مهمًا، فحدد ما الذي يلزمك فعله حتى موعده ثم ارجع إلى يومك. وإن كنت أمام قرار، فحدد المعلومات التي بقيت فعلاً بدل فتح بحث بلا نهاية. المقصود أن يتعلم القلب أن التوكل حركة من ظمة، لا مجرد محاولة لإقناع النفس بالهدوء.

وفي المساء لا تسأل فقط: هل حصلت النتيجة؟ اسأل: هل أديت أمانتي؟ هل طلبت الحلال؟ هل حفظت حق غيري؟ هل صحت خطأ ظهر؟ هذا النوع من المراجعة يربيك على ميزان تستطيع التحكم به. النتيجة قد تتأخر، أما صدقك في السبب فيمكن أن يبدأ اليوم.

ثم اختم بدعاء صادق لا بصيغة صفقة. اطالب ما تحب
بوضوح، وقل في قلبك: يا رب، هذا وسعي وهذا طلبي، وأنت
أعلم بي. هذا الجمع بين الطالب والتفويض هو تدريبي يومي
على أن يكون اليقين طريقاً، لا معلومة محفوظة.

الباب الثاني: حَسْبِيَ اللَّهُ

معنى الحسب

قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^٨

الحسب هو الكافي؛ فالله كافٍ بيه والمؤمنين. لا يجعلهم ذلك بلا عمل؛ فالآية في سياق إعداد وقوة، ولكنها تمنع القلب من أن يظن أن العدد والسلاح يصنعان النصر استقلاً. وحين يقول المؤمن: حسبي الله، لا يسقط حقوق الخلق ولا حاجته إلى الأسباب، بل يرد الكفاية إلى من خلقها.

قد يكون حسبك أن يحفظ الله دينك وإن خسرت مكاناً، أو أن يرزقك صبراً وإن لم يرفع الألم سريعاً، أو أن يفتح لك باباً لم تحسبه بعد انغلاق باب أحببته. الكفاية أوسع من الطلاب الصغير الذي يراه العبد.

حين تقولها، لا تقلها كتعويذة تضمن بها اختيارك. قلها عبودية: يا رب، أنت تكفيني بما تعلم أنه خير، وأنا أمضي في طاعتك.

٨. الأنفال: ٦٤؛ ينظر تفسير ابن كثير عند الآية.

الوكيل سبحانه

قال سبحانه:

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾^٩

الوكيل سبحانه هو الكافي الذي يعتمد عليه عبده، العليم بحاله، القدير على إنقاذ ما يشاء. ليست وكالاته كوكالة المخلوق الذي يجهل ويعجز وينسى. يطلب المؤمن من الناس ما يقدرون عليه، ويظل افتقاره إلى الله حاضرًا.

لذلك لا يحتاج المتوكل إلى أن يشرح لله كل الاحتمالات كأن شئياً يفوته. التفصيل في الدعاء عبادة وحاجة، لكن القلب يعلم أن الله يعلم ما لم يقله، وأن اختياريه أرحم وأحكم من اختياري العبد لنفسه.

إذا خفت أن ينسى الناس حقك، أو أن يغيب عنهم تعبك، فاذاكر أن الوكيل لا يغيب عنه شئ. أدما عليك، واطلب حقك بالطريق المشروع، ولا تجعل سلام قلبك مرهوناً بكمال إنصاف البشر.

الحي الذي لا يموت

قال الله تعالى:

{وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ
بِذُنُوبٍ عِبَادِهِ خَبِيرًا} ١٠

كل من تستعين به من الخلق يلحقه ضعف أو غياب أو موت. قد يحبك ولا يقدر، وقد يقدر اليوم ثم تتغير حاله. أما الله فحي كامل الحياة لا يموت.

ليس المقصود أن تقطع محبتك بالإناس أو تعاونك معهم. المقصود أن تعرف مراتب الأشياء. تحبهم، وتشكرهم، وتستعين بهم فيما يقدرون عليه، لكن لا تسند إليهم قلبك إسناداً لا يليق إلا بالله. إذا غاب واحد منهم لم ينقطع رجائك من رب العالمين.

وقد يزيده ألم الفقد حين نحمل السبب ما لا يحتمل. جعلنا الوظيفية أمناً كاملاً، أو الطببي ضماناً، أو العلاقة مأوى لا يزول. فإذا تبدل السبب انهار معه معنى الحياة. التوكل يعيد السبب إلى حجمه، ويعيد القلب إلى الحي الذي لا يموت.

انظر إلى أكثر ما تخاف فقدته. اشكر الله عليه، واحفظ حقه،
ثم ذكر قلبك بأن بقاء هذه النعمة ليس في يد المخلوق، وأن
الله يعلم حاجتك إذا تغيرت الأحوال.

القيوم الذي تقوم به الأشياء

قال الله تعالى:

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾^{١١}

الله هو الحي القيوم. قيام الخلق وأرزاقهم وآجالهم وأسبابهم كلها به سبحانه. لا يقوم شيء بنفسه، ولا يستقل مخلوق عن مشيئته. وهذه المعرفة لا تدعو إلى السكون، بل تحرر العمل من الغرور.

حين تنجح الخطة، لا تقل في باطنك إن دقتها أغنتك عن الله. كم من خطة أدق منها تعطلت بسبب صغيّر لم يدخل الحساب. وحين تفسل، لا تتهم الله ولا تجعل تعطل خططك دليلاً على غياب الحكمة. اسأل عن تقصيرك، وصح ما تستطيع، واعلم أن ما خفي عنك لا يخفى على القيوم سبحانه.

لا تجعل ذكر الله آخر بند في الخطوة. اجعله أولها ووسطها وآخرها؛
لأنك تتحرك بقوة أعطاك إياها، وفي عالم يقيمه، وإلى
نتيجة يقدرها.

كفاية لا تحدد أن صورتها

نقرأ وعد الكفاية ثم نرسم له صورة واحدة: أن يشفى المريض الآن، وأن يتم الزواج بهذا الشخص، وأن تنجح التجارة في هذا الشهر. فإذا جاء القدر بغير ذلك، ظن بعضنا أن الوعد لم يتحقق. والخلل في تصورنا للكفاية، لا في وعد الله.

قد يكفيك الله بأن يعطيك، وقد يكفيك بأن يمنع عنك ما يضرّك. قد يكفيك بتبديل الحال، أو بتثبيت القلب حتى تعبرها، أو بكشف عيب كان مستوراً عنك. وليس لنا أن نجزم في حادثة بعينها بسبب بغيري لم يخبرنا الله به؛ لكننا نعلم أصلاً أن حكمه لا يخرج عن العلم والحكمة.

قال سبحانه:

{أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ} ١٢

الكفاية هنا في مواجهة تخويف المشركين، لا في حياة بلا ابتلاء. وقد أودى الأنبياء عليهم السلام، ومع ذلك لم يخرجوا من كفاية ربهم.

اسأل حاجتك بوضوح، واسأل معها الخير والبركة، وفوض إلى
الله ما لا تعرف عاقبته. هذه ليست برودة في الطاب، بل أدب
العبد مع علم ربه.

حسبنا الله ونعم الوكيل

قال الله تعالى:

{الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ
لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ الَّذِينَ قَالُوا لَهُمُ
النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا
وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٤﴾ فَانْقَابُوا بِرِجْمَةٍ مِنَ اللَّهِ
وَفَضَّلِ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو
فَضْلٍ عَظِيمٍ} ١٣

وجاء في الخبر:

{«حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ» قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ
أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ قَالُوا
{إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا
حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ}» ١٤

لم تكن الكلمة هروباً من الميدان؛ كانت كلمة استجابة بعد
الجراح. يجتمع فيها الاعتماد عند الشدة والطاعة مع الخوف.

١٣. آل عمران: ١٧٢-١٧٤.

١٤. صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب «إن الناس قد جمعوا لكم» الآية، رقم ٤٥٦٣، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

ليس كل من نطق بها متوكلًا، كما أن ليس كل ساكت عنها فاقداً
للتوكل. العبرة بما استقر في القلب وما تبعه من استجابة.
تستطيع أن تقولها وأنت تراجع الخطة، وتلبس درعك،
وتطالب النصر؛ لأن الكلمة لا تلغي العمل، بل تطهره من
عبودية الخوف.

إذا اشتد عليك تهويل الناس، فاسأل: ما الذي أمرني الله به؟
ثم قلها واعمل. حسبنا الله: كافينا. ونعم الوكيل: من فوضنا
إليه ما لا نملكه.

وقفة الباب الثاني | الكفاية التي لا تشبه أوهامنا

قد تقول «حسبي الله» ويبقى القلق. لا تجعل سرعة هدوء
المشاعر امتحاناً لصدق كل ذكر؛ اعمل بما تعرف من الحق،
واسأل الله أن يصلح اعتمادك، وامنح النفس فرصة للتعلم.

تأمل هذا المثال التمثيلي: ينتظر موظف قبول طلاب
ان تقال، وقد بنى عليه راحة أسرته. تتأخر الإجابة فيراجع
بريده مراراً ويضيق بمن حوله. لا نطالب منه أن يتظاهر بأن
الطلاب لا يعنيه، بل أن يحدد ما بقي في يده: استفسار في
موعد مناسب، ومواصلة عمله، ومناقشة بديل ممكن مع أسرته.
أما تكرار فتح البريد فلا يعجل جواباً.

هذه العودة إلى حدود المسؤولية تحفظ حق الطالب وحق اليوم الحاضر معًا. فإذا جاء الرفض لم يكن ملازمًا بأن يراه نعمة مفهومة فورًا؛ يحزن، ويراجع الخيارات، ويظل مؤمنًا بعلم الله وحكمته. لا يفسر الرفض بأنه حكم على قِيَمته أو دليل على أن الله أهمله.

والعدل مع الناس ثمرة أخرى: تطلب ممن وعدك بيانًا، ومن أخطأ تصحيحًا، ولا تحمله ضمان مستقبلك كله. تشكره على إحسانه وتحفظ حقه عند تقصيره؛ ومع ذلك لا تجعل استقرار قلبك مرهونًا بكماله.

تطبيقات الباب الثاني | إعادة الأشياء إلى أحجامها

إن ظر إلى أكثر سبب يمنحك شعورًا بالأمان: مال، وظيفه، شخص، مهارة، خطة. لا تحاول إقناع نفسك بأنه غير مهم؛ اعترف بقيمته أولًا. ثم اسأل: ما الذي يستطيع هذا السبب أن يفعله فعليًا، وما الذي لا يستطيع؟ الوظيفة تعطي دخلًا ما دامت قائمة، لكنها لا تضمن الصحة ولا دوام السوق. الطبيب يقدم علمًا وعلاجًا، لكنه لا يخلق الشفاء. الصديق يسند، لكنه لا يملك أن يكون حاضرًا دائمًا. هذا التفصيل يعيد النعمة إلى موضعها من غير جحود.

بعدها افحص اللغة التي تستخدمها حول هذا السبب. إن وجدت عبارات مطلقة مثل «بدونه ان تهيت» أو «هو فرصتي الوحيدة»، استبدلها بجملة أصدق: «هو باب مهم، وسأحفظه ما استطعت، لكن أبواب الله لا تنحصر فيه». اللغة لا تغير الواقع وحدها، لكنها تكشف التصورات وتساعد على إصلاحه. ثم تترجم الشكر إلى عمل يحفظ النعمة. إن كان مائلاً، أدق حقه ولا تمنع واجباً خوفاً عليه. إن كان شرخصاً، اشكره ولا تحمله مسؤولية سعادتك كلها. إن كانت وظيفية، ألقها ولا تتبع لأجلها دينك. بهذه الممارسة يتحول الامتنان إلى حماية من التعلق.

وإذا اهتز السبب يوماً، لا تطالب نفسك بالبرود. احزن وخذ الأسباب البديلة، لكن ذكرك قلبك أن الذي رزقك به أول مرة لم يجعل خزائنه داخله. هذا ليس وعداً ببدل مطابق، بل عودة إلى أصل الكفاية.

الباب الثالث: الأسباب لا تملك نفسها

فإذا عزمْتَ فتوكل

قال الله تعالى:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلَابِ
لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ
فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ
الْمُتَوَكِّلِينَ﴾^{١٥}

المشاورة والعزم والتوكل في سياق رحمة ولين وعفو. فليست
المشورة إجراءً جامداً؛ تحتاج إلى صبر يسمع، وإلى رفق
يفتح للناس باب المشاورة. ثم يأتي القرار بعد النظر،
ويبقى القلب معتمداً على الله.

المشاورة توسع النظر، والعزم يقطع التردد بعد ظهور الوجه
الراجح، والتوكل يمنع القلب من عبادة اختياريه. قد يكون
القرار مدروساً ثم لا ينجح؛ لأن الدراسة سبب لا وعد. وقد يقع
فيه نقص، فتتعلم وتصحح، من غير أن تقيم محكمة
داخلية لا تنتهي.

بعض الناس يؤخر القرار ويقول: لم أشعر بالطمأنينة. وربما لم يبق من المعلومات ما ينتظر، لكنه يريد علم الغيب قبل الحركة. لن تملك ذلك. اجمع ما تستطيع، واستشر من يعلم ويصدق، وصل الاستخارة، ثم اعزم.

التردد الطويل قد يبدو احتياطًا، لكنه أحيانًا خوف من تحمل مسؤولية الاختيار. التوكل لا يعفيك من المسؤولية؛ يمنحك قابلاً يؤديها وهو يعلم أن العصمة ليست له.

وشاورهم في الأمر

المتوكل لا يستغني عن عقول الناس. النبي ﷺ، وهو المؤيد بالوحي، أمر بالمشاورة. فكيّف بمن يخطئ نظره، وتغلبه رغبتة، ولا يرى من الأمر إلا وجهًا واحدًا؟

لكن المشورة أمانة. لا تسأل من يقول لك ما تحب فقط، ولا تجمع آراء لا نهاية لها حتى يضيق صوت الحق بينها. اختر من يجتمع فيه علم بالمسألة وصدق في النصيحة، ثم ميّز بين الخبرة وبين التحكم في قلبك. المستشار سبب، وليس مآلًا للتيجّة.

وقد يسمع الإنسان رأيًا صائبًا ثم يرفضه لأن نفسه تعلقّت بصورة أخرى. وقد يستعمل عندها لفظ التوكل ليحمي رغبة لم يعرضها بإنصاف على الدليل. ومن صدق مع الله كان مستعدًا لأن يعدل عن رأيه إذا ظهر له خطؤه، وأن يمضي إذا ظهر رجحانه.

ضع سؤالك واضحًا، واذكر للمستشار ما يؤثر في الحكم، ولا تطالب منه أن يخترار عنك ما لا يعرفه من حالك. ثم ارجع إلى الله. الناس يدلّون، والله يهدي ويوفق.

يعقوب والأبواب المتفرقة

قال الله تعالى:

﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ۝ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^{١٦}

جمع يعقوب عليه السلام بين احتياطي يوصي به أبنائه وبين تفويض لا يغيب عن قلبه.

أخذ بالأمر الذي رآه احتياطاً، ثم نفى عن السبب قدرة لم يجعلها الله له. هذه دقة التوحيد: أن تفعل السبب ولا تغتر به. لم يقل لهم ادخلوا كيف شئتم لأننا متوكلون، ولم يقل إن الأبواب المتفرقة سترد كل ما قدره الله.

نحتاج هذا الميزان في التربية والسفر والمال والصحة. اربط حزام الأمان، واحفظ الوثائق، وعلم ولدك، ثم اعلم أن السلامة والهداية ليستا ملكاً ليديك. إذا نجحت الإجراءات فاحمد الله، ولا تسخر ممن وقع له ما لم يقع لك.

ويكشف ختام السياق أن هذا الاحتياط لا يدفع قدر الله، وأن يعقوب يعلم ذلك. اعمل بعلمك المحدود، ولا تنس أن العلم الكامل لله.

مريم وهز الجذع

قال الله تعالى:

﴿فَاجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مِّنْ سَيِّئًا ۖ فَانَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ۖ وَهْزِي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا ۖ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ۚ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنَّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أَكُلِمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾^{١٧}

في مشهد المخاض أمرت مريم عليها السلام بهز الجذع، وجاءها رزق الله. نتعلم أن الفضل منه سبحانه، وأن فعل السبب المتاح لا يناقض الافتقار إليه. وليس في المشهد تكلي ف لكل مبتلى فوق طاقته؛ لكل حال استطاعتها.

قد يبدو ما في يدك أقل من المطلوب: ساعة دراسة أمام علم واسع، مبلغ يسير أمام دين كبير، كلمة هادئة أمام خلاف متراكم. لا تحتقر الخطوة لأنك لا تملك بها النتيجة. افعلها لله؛ فالذي أمر مريم بالهز هو الذي أسقط الرطب.

وفي الوقت نفسه، لا تجعل الحركة حجة على نفسك: لقد فعلت، فلا بد أن أحصل. العبد يفتعل لأنه مأمور، والرب يعطي بحكمته. وقد تكون ثمرة العمل في قلبك قبل أن تكون في خارجه: صدق، وصبر، وتحرر من العجز.

ما الخطوة الممكنة اليوم؟ لا تنتظر قوة لا تحتاج إليها البداية. ابدأ بما في يدك، وقل: يا رب، لا حول لي ولا قوة إلا بك.

الطير تغدو

قال رسول الله ﷺ:

«لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرُزِقْتُمْ كَمَا تُرْزَقُ الطَّيْرُ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا».^{١٨}

في الحديث غدو ورواح مع صدق الاعتماد؛ فالسعي لا يناقض التوكل، والعبد لا يملك رزقه استقلالاً.

الحديث لا يعد كل فرد بغنى واسع، لكنه يربي القلب على أن السعي لا يناقض الثقة. رزق الطير من الله، وغدوها من السبب. لا تحمل خزائن معها، ولا تعرف موضع كل حبة قبل أن تطير، لكنها تسيّر بما خلق الله فيها من هداية.

قد يطلب منك المستقبل خطة، لكنه لا يطلب منك أن تعرف كل تفاصيله. اخرج إلى عملك، وتعلم ما ينفعلك، واطلب الحلال، ولا تجعل جهلك بالغد شللاً. وما فاتك بعد بذل السبب لم يكن لتدركه بقوة القلب.

الغدو صورة جميلة، لكن وراءها معنى شاق: مغادرة موضع الراحة. من أراد رزقاً أو علماً أو إصلاحاً، فليبدأ طريقه. التوكل جناح، وليس قيوداً.

١٨. جامع الترمذي، أبواب الزهد، باب في التوكل على الله، رقم ٢٣٤٤، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه. قال الترمذي: حسن صحيح. خِمَاصًا: جائعة، وبتاناً: ممثلة البطون.

وقد يبدأ السعي من باب صغير: تعلّم مهارة، أو سؤال أمين عن فرصة، أو إعداد ما تحتاج إليه غداً. لا تُكلّف أن ترى الطريق كله قبل خطواتك الأولى. أعط هذه الخطوة حقها، واسأل الله رزقاً طيباً يعينك على طاعته.

بين السبب ورب السبب

للسبب قدر، وليس له قلبك. من ألغاه خالف ما جرى عليه الشرع والحياة، ومن اعتمد عليه استقلاً لا نسي خالقه. والسبب لا يستقل بإيجاد أثره؛ فالله خالقه وخالق أثره، واستعمال السبب المشروع لا يناقض الاعتماد عليه سبحانه.

يعرف الطبيب الدواء، لكنه لا يخلق أثره. ويعرف المزارع الموسم، لكنه لا ينزل المطر. ويحسب صاحب المشروع النفايات، لكنه لا يملك قلوب المشترين ولا سلامة السوق. هذا لا يقلل من الخبرة؛ بل يضعها في موضعها الشرقي: أمانة بشرية داخل قدر الله.

إذا تعطل السبب، فلا تسخر من حكمته؛ ابحث عن بديل. وإذا نجح، فلا تنسب كل الفضل إلى ذكائك؛ اشكر المنعم. وإذا لم تجد سبباً ظاهراً، فلا تيأس؛ خزائن الله لا تنحصر فيما تعرفه.

ردد في داخلك وأنت تعمل: هذا سبب خلقه الله، وأنا مأمور بإحسانه، ولا يملك لي نفعاً ولا ضرراً إلا بإذن الله. بهذه الجملة يستقيم العقل والقلب معاً.

وقفة الباب الثالث | الأسباب أمانة وليست آلهة

معرفة حدود الخبرة من تمام استعمال السبب. قد تحتاج في مسألة إلى عالم، وفي أخرى إلى طبيب أو مهندس، وفي ثالثة إلى من يعرف ظروف الأسرة. لا يبغي حسن قصد المستشار عن علمه بما يُسأل عنه، ولا نجاحه في مجال أهليته لكل مجال.

وفي مثال تمثيلي، تريد أسرة إصلاح تسرب في سقف بيتها. تقارن عرضين وتُسأل عن موضع الخلل والضرمان، ثم تختار من تثق بكفاءته. إذا عاد التسرب، لا يكون تصحيح السبب اعتراضاً على القدر؛ ترجع إلى المختص وتوثق الخلل وتطلب الإصلاح. ولا يعني اختياريها الأول أنها ضمنت ما وراء علمها.

وهكذا يظل السبب قابلاً للفحص. لا ترفض النصيحة لأنك استخرت، ولا تجعل تجربة سابقة ناجحة حجة لإهمال علامات جديدة. الاعتماد على الله يعين على الاعتراض بالخطأ لأن الكرامة لا تتوقف على سلامة كل اختياري بشري.

قبل العمل اسأل عن مشروعية الوسيلة ونفعها وحدود قدرتك، وبعده اسأل عما تعلمته. تخلف أحكام الأسباب باختلاف الحاجة والحق والضرر؛ فلا تجعل كل احتياطي واجباً، ولا كل ترك له تقصيراً. وعند الالتباس تطلب المشورة التي تناسب المسألة.

تطبيقات الباب الثالث | خريطة السبب الصحيح

قبل أي خطوة مهمة، اكتب السبب الذي تنوي استعمله واسأل عنه أربعة أسئلة: هل هو مشروع؟ هل هو معتبر في العادة أو الخبرة؟ هل في استعمله تعدّ على حق أحد؟ وهل صار قلبي يراه ضماناً لا وسيلة؟ قد يكون السبب قوياً من جهة الدين لكنه محرم، فلا يجوز أن يسمى توكلاً. وقد يكون مباحاً لكنه يضيع حقاً واجباً، فيحتاج تصحيحاً.

ثم حدد «نقطة الكفاية» في السبب. كم من البحث يكفي؟ كم من الاستشارة؟ متى يصح الاحتياط وسوأساً؟ تحديد الحد مسبقاً يمنعك من توسيع السبب بلا نهاية. الطالب لا يحتاج قراءة كل كتاب قبل أن يبدأ، وصاحب القرار لا يحتاج رأي كل إنسان. الكفاية هنا تقدير بشري قابل للمراجعة، لكنها أفضل من البحث الذي لا يعرف نهاية.

بعد التنفيذ راقب أثري من فصيلين: أثر السبب في الخارج، وأثره في قلبك. قد تكون الخطة ناجحة لكنك خرجت منها معجباً بنفسك؛ هنا يحتاج القلب علاجاً. وقد ت فشل الخطة لكنك تعلمت وأديت ما عليك؛ هنا لا تختزل التجربة في كلمة «فشل». هذا الفصل يساعدك على أن تتعلم من الدنيا من غير أن تجعلها الحكم الوحيد على علاقتك بالله.

وإذا تبين أن السبب خطأ، غيره بلا حساسية. التوكل ليس
وفاءً لخطاة بشرية، بل وفاء للحق. الاعتراف بأنك أخطأت
في اختيار وسيلة قد يكون من أجمل صور العبودية لأنه
يكسر العناد ويحفظ الأمانة.

الباب الرابع: قلوب الأنبياء

نوح أمام قومه

قال الله تعالى:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ ﴿١٩﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِن أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَأَمِرتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^{١٩}

يقف نوح عليه السلام أمام قومه، لا يطلب أجراً منهم، ولا يجعل رفضهم سبباً لترك ما أمره الله به. قوة الموقف في صدق البلاغ والاعتماد على الله.

التوكل في الدعوة لا يعني أن ترض من استجابة الناس. والنص يضع أمامنا موقف نبي ثابت مع تَوَلَّى قومه. كانت مهمته البلاغ، ولم يكن تحويل القلوب في يده.

نحن نتعب أحياناً لأننا نخلط بين الأمانة والنتيجة. نريد أن تقبل الأسرة نصحن فوراً، وأن يفهم الصديق مقصدنا، وأن يظهر أثر التربية في الموعد الذي وضعناه. فإذا تأخر اتهمنا العمل أو تركناه. يعلمنا نوح أن طول الطريق لا يغيّر صاحب الطريق إذا كان على بيّنة.

قل كلمة الحق برفق وعلم، وراجع أسلوبك، واصبر على التعلم،
ثم اترك للهدى رباً يهدي من يشاء. التوكل يحفظ الداعية من
اليأس، ويحفظه أيضاً من الكبر حين يستجيب الناس.

هود لا يخاف كيدهم

قال الله تعالى:

﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَزَّاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ۖ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ
وَأَشْهَدُوا أَنَّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝ مِنْ دُونِهِ ۖ فَكَيْدُونِي
جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونَ ۝ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ۚ
مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ
مُسْتَقِيمٍ﴾^{٢٠}

في مواجهة التخويف بالآلهة الباطلة يعلن هود عليه السلام براءته من الشرك واعتماده على ربه. لا يخرج مخلوق من سلطان الله، ولا يظلم الله أحداً.

لم يكن موقفه تهويراً يطالب الخطر، بل ثبات نبي أدى ما أمر به، وعرف بطلان ما يخوفونه به. التوكل هنا ثمرة توحيد صريح: ربي وربكم، ورب كل دابة. إذا استقر هذا المعنى، صغر كيد المخلوق من غير أن ينكر العبد وجوده.

قد يخشى الإنسان كلمة مسؤول، أو تهديد صاحب قوة، أو حملة من الناس. الخوف الطبيعي ليس عيباً، لكن لا تدعه ينقل طاعتك من الله إلى المخلوق. خذ الاحتياطات المشروعة، واحفظ لسانك من الظلم، ولا تساوم على الحق لتشتري أماناً لا يملكه أحد.

ليس المطلوب أن تتحدى الناس طلباً للاظهار. المطلوب أن تعرف حدهم وحدك: هم عباد الله، وأنت عبد الله، والأمر كله له.

شرعي بيريدي الإصلاح

قال الله تعالى:

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۖ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ۚ إِن أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۗ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أَنِيبُ﴾^{٢١}

جمع شرعي ب عليه السلام بين نية الإصلاح وحدود الاستطاعة ورد التوفيق إلى الله. وبدأ باستقامة القدوة: لا يريد أن يفعل ما ينهى قومه عنه. لا يصح أن يطلب المصلح من الناس ما يستثني نفسه منه.

ما أرحم قول «ما استطعت». لا يبيح التقصير، لكنه يمنع ادعاء القدرة المطلقة. يصلح الإنسان ما يستطيع في بيته وعمله ومجتمعه، ولا يحمل نفسه مفاتيح العالم. وما أصدق «وما توفيقي إلا بالله»؛ فالفكرة الصحيحة لا تكفي إن لم يفتح الله لها القلوب وييسر لها الطريق.

ومن آفات المصلحين أن يتعلقوا بصورة نجاههم، فإذا لم
تقع غرضبوا للذات وهم يظنون أنهم يرضون للحق. التوكل
يظهر الإصلاح من تملك الناس. تنصح ولا تستعبد، تدعو ولا
تكهر القلوب، وتفرح بالخير ولو جرى على يد غيرك.
قبل أن تبدأ إصلاحًا، أصلح نيتك. وأثناءه اعرف
استطاعتك. وبعده رد التوفيق إلى الله، وارجع إليه كلما
أخطأت.

رسل قد هداهم الله

قال الله تعالى:

﴿قَالَ لَهُمْ رَسُولُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى
مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ
اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٢٢﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى
اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنْ صَبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ
فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ ٢٢

الهداية أورثت توكلًا، والتوكل صحبه صبر. تقرر الرسل
ببشريتها، وتورد آياتها إلى إذن الله، فلا تستمد ثباتها
من دعوى قوة ذاتية.

من عرف الطريق لم يصبح الطريق سهلاً بالضرورة. قد تأتي
الهداية ثم يأتي معها أذى من يرفضها. لكن القلب الذي ذاق
نعمة الدلالة على الله يرى أن الذي هداه أول مرة لن يضيعه وهو
يطيعه.

ترتبط هذه الآية بحياتنا أكثر مما نظن. قد تهتدي إلى
رد مال، أو ترك علاقة محرمة، أو إعلان حق، ثم تخاف ما
يترتب على ذلك. لا تقل: لو كان خيراً لما كان صعباً. بعض
الخير يمر عبر صبر طويل، والتوكل هو زاد العبور.

لا تطلب من الهداية حياة بلا ألم. اطلب بها قلباً يعرف لماذا
يصربر، وعلى من يعتمد، وإلى من يرجع.

مؤمن آل فرعون يَفُوضُ أمره

قال الله تعالى:

﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ۝ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ۝ مَن عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَن عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَن ثَمَّرَ ۖ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَيُزْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝ وَيَا قَوْمِ مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ۝ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لِيَ سِ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ۝ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لِيَ سَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ۝ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ۖ وَأَفْوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ۝ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا ۖ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ۖ﴾^{٢٣}

سبق التفويض بيان ونصح، ولم يكن بديلاً عنهما. دعا المؤمن قومه إلى النجاة، ثم سلم أمره إلى الله؛ وهذا يحرر التفويض من معنى الاستقالة.

حين تدخل موقفاً تخشى عاقبته، أسأل نفسك: هل قلت ما يجب بأدب؟ هل وثقت ما يلزم؟ هل استعنت بمن يقدرك؟ إذا فعلت، فلا تبق في قلبك تعيد المشهد ألف مرة. قل: وأفوض أمري إلى الله. هو بصير بالعباد، يعلم ضعفك وصدقك، ويعلم مكر من يمكر.

ليس التفويض وعداً بأن ترى الوقاية بالصورة نفسها التي قرأتها في القصة. لكنه يقيّن أن أمرك لم يسقط في فراغ، وأن الله بصير لا تخفى عليه سريرة ولا عاقبة.

وتوكل على العزيز الرحيم

قال الله تعالى:

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ۝ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ۝ وَتَقْلُبُكَ فِي السَّاجِدِينَ ۝ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^{٢٤}

هو العزيز الذي لا يغالِب، الرحيم بعباده، السميع العليم. يرى عبده في قيامه وسجوده، ويعلم ما لا يستطيع أن يبوح به لأحد.

يحتاج القلب إلى هذه المعاني مجتمعة. لو تصور قدرة بلا رحمة خاف ولم يسكن، ولو تصور رحمة بلا قدرة لم يَأْمَن العجز، ولو غفل عن علم الله ورؤيته ظن أن وحدته نسيان. القرآن يبنّي التوكل على معرفة كاملة تليق بالله.

إذا كثرت أعبائك، فلا تجعل الصلاة أول ما تسقطه. الذي أمرك أن تعمل هو الذي يراك حين تقوم؛ ومن السجود يعود القلب إلى موضعه.

وقفه الباب الرابع | ما ن تعلمه من قلوب الأنبياء

يتكرر في هذه النصوص معنى الاستطاعة مع صدق البلاغ. فلا تقاس قيمة النصيحة بسرعة قبولها، ولا يكون تأخر الاستجابة إننا بتجاوز حقوق الناس. وقد يحتاج المصلح أن يراجع علمه ولهجته وتوقيته كلامه قبل أن يكرر ما قال.

في مثال تمتثلي، يلاحظ معلم تعثر طالب في أداء واجباته. يستطيع أن يشرح ويسأل عن العائق ويتعاون مع الأسرة، لكنه لا يستطيع أن يستخرج من الطالب نتيجة في الموعد الذي يرسمه وحده. إذا جعل كل تأخر إهانة لجهد قسا عليه؛ وإذا أسقط المتابعة ضريح أمانته. وبينهما عمل جاد يحتمل زمن التعلم.

ومن أصعب صور التوكل أن تقبل خيراً جاء من غيرك. قد لا يقبل المرء نصحك ثم ينتفع بكلمة من شخص آخر. افرح بالإصلاح، ولا تحول محبة الخير إلى مطالبة بأن يمر من بابك وحده.

والثبات يكون على الحق؛ أما الوسيلة فتراجع بحسب أثرها. إن ظهر أن وقتاً آخر أنسب أو أن مختصاً أقدر فاستعن به. كلما اتسع العمل احتاج صاحبه إلى تواضع أشد، لأن كثرة ما يستطيع فعله لا تمنحه سلطاناً على القلوب.

تطبيقات الباب الرابع | دائرة الإصلاح

اختر علاقة أو مشروع إصلاح يشغلك وحدد ثلاث دوائر.
الأولى: ما يجب عليك فعله بنفسك، مثل نصح أو إجراء أو
تعليم. الثانية: ما تستطيع المساهمة فيه لكنك لا تملكه
وحدك، مثل قرار فريق أو استجابة ابن بالغ. الثالثة: ما
ليس لك أصلاً، مثل هداية القلب أو تغيير الماضي. كلما اختلطت
هذه الدوائر تضحخ التعب.

في الدائرة الأولى كن جاداً ولا تستخدم التوكل ذريعة. ضع
موعداً، وتعلم ما يلزم، واعتذر إن قصرت. في الثانية اعمل
بالتعاون وحدد حدود مسؤوليتك. في الثالثة مارس
التفويض بوعي: ادع، واصبر، ولا تعاود محاولة السيطرة
ببطرق مؤذية.

ثم راقب علاقتك بالن تيجة. هل غضبك من عدم
الاستجابة سببه حب الخير فقط، أم جرح في صورتك لأن
الناس لم يسمعوا لك؟ ليس عيباً أن تختلط الدوافع، لكن
الاعتراف بها يظهر العمل. كلما زاد إخلاصك استطعت أن تفرح
بالخير ولو جاء من غيرك.

وأخيراً ضع لنفسك علامة توفق. متى تصبح النصيحة
إلحاحاً؟ متى تتحول المتابعة إلى مراقبة مفرطة؟ التوكل
يساعدك على التوقف في الوقت الصحيح كما يساعدك على
البدء. ليس كل استمرار فضيلة.

الباب الخامس: حين يخي فك الناس

إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ

قال الله تعالى:

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ۝ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ آلِهِمْ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَهُ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ۝ إِنَّ مَا ذُكِّرْتُم مَّا يَكُنْ لَهُ خَافُونَ إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^{٢٥}

قد يتحول الخبر إلى وسيلة تخويف. يبين هذا السياق أثره في المؤمنين: ازدادوا إيماناً واعتماذاً على الله. والعبرة أن يسمع القلب ما يبلغه من أخبار من غير أن يسلم قياده للاثهويل.

ليس كل خبر يستحق أن يسكن قلبك. قبل أن تستجيب له، اسأل عن صدقه، وعن غرض ناقله، وعن الواجب الذي سيغيره. قد تكون المعلومة صحيحة، لكن استخدامها يراد به تعطيلك عن الحق.

التوكل لا يمنع تقدير الخطر، لكنه يعين على ألا يصير الخوف وحده صاحب القرار. استجابوا لله ورسوله ﷺ، فصار قولهم ثمرة موقف لا بديلاً عنه.

في زمن تتدفق فيه الأخبار، احفظ قلبك من كل «قد
جمعوا لكم». لا تنكر الواقع، ولا تسلّم قِيادك للتهويل. اعرف ما
عليك، وخذ عدتك، وقل: حسبني الله.

الخوف الطبيعي لا يهدم القلب

قال الله تعالى:

{فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى ۖ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ
أَنْتَ الْأَعْلَىٰ} ٢٦٠

ذكر القرآن ما وجد موسى عليه السلام في نفسه من الخوف، ثم جاءه تطمين ربه. ليست المشاعر الطبيعية وحدها حكمًا على التوكل. والسؤال الذي يعينك: ما الفعل الصحيح حين أخاف؟ قد يسرع نبضك قبل مقابلة، أو تخشى نتيجة فحص، أو تضيق من سفر ولدك. لا تظلم نفسك فتطالبها بألا تشعر. خذ الشعور إلى الله، وسمّ الخطر بوضوح، ثم افعل ما تستطيع. التوكل ليس تخديرًا للألم؛ هو أن يبقّى الله أكبر في قلبك من الألم.

ومن الخطأ أن نعيّر الخائف بضعف الإيمان. قد يكون أشدّ توكلًا ممن لا يخاف لأنه لا يدرك الخطر. الشجاعة الشرعية ليست غياب الإحساس، بل ثبات الاختيار على الحق مع وجوده.

إذا جاءك الخوف، لا تفاوضه طويلاً. توضع، وصل، واستشر،
واتخذ السبب القريب. دع الجسد يهدأ في طريق الطاعة، ولا
تنتظر أن يهدأ قبلها دائماً.

الرجل والسيف

جاء في الخبر:

«أَنَّهُ، غَزَا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأُذِرَتْهُمْ الْقَائِلَةُ فِي وَادٍ كَثِيرِ الْعُضَاهِ، فَتَفَرَّقَ النَّاسُ فِي الْعُضَاهِ يَسْتَظِلُّونَ بِالشَّجَرِ، فَنَزَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَحْتَ شَجَرَةٍ فَعَلَّقَ بِهَا سَيْفَهُ ثُمَّ نَامَ، فَاسْتَيْقَظَ وَعِنْدَهُ رَجُلٌ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ بِهِ. فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "إِنَّ هَذَا اخْتَرَطَ سَيْفِي فِي". فَقَالَ مَنْ يَمْنَعُكَ قُلْتُ "اللَّهُ". فَشَامَ السَّيْفَ، فَهَا هُوَ ذَا جَالِسٍ، ثُمَّ لَمْ يُعَاقِبْهُ».^{٢٧}

كان الجواب اعتماداً على الله، وانتهى الخبر بعفو النبي ﷺ. لا نأخذ من هذا الموقف دعوة إلى تعمد الخطر أو إهمال الاحتياط؛ إنما نتعلم منه صدق اللجوء إذا فوجئ الإنسان بما لم يستعد له.

وقد لا يكون في يد المرء لحظة المفاجأة إجراء يدفع به الخطر، لكن باب الدعاء لا يغلق. فإذا عاد إليه إمكان الحماية استعمله؛ فصدق اللجوء لا يقتضي البقاء في العجز مع ظهور وسيلة نافعة.

٢٧. صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب تفرق الناس عن الإمام عند القائلة والاستظلال بالشجر، رقم ٢٩١٣، عن جابر رضي الله عنه. العضاة: شجر ذو شوك؛ وشام السيف: أغمده.

تمر بالإنسان لحظات لا يستطيع فيها إلا الدعاء: خبر
مباغت، حادث، قرار خارج سلطته. في تلك اللحظة تظهر
ثمرة ما كان يبني في أيام السعة. من ذكر الله في رخائه، لم
يكن اسم الله غريباً عن لسانه عند الشدة.
ابن جوابك قبل السؤال. عود قلبك أن يعرف من يمنعه
ويرحمه، ثم لا تتعمد مواطن الخطر طالباً لكرامة أو قصة.

خبيب في الأسر

جاء في الخبر:

«بَعَثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَرِيَّةً عَيْنًا، وَأَمَرَ عَلَيْهِمُ عَاصِمَ بْنَ ثَابِتٍ - وَهُوَ جَدُّ عَاصِمِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ - فَإِنْ طَلَقُوا حَتَّى إِذَا كَانَ بَيْنَ عُسْفَانَ وَمَكَّةَ ذَكُرُوا لِحِيٍّ مِنْ هَذِيْلٍ، يُقَالُ لَهُمْ بَنُو لَحِيَّانَ، فَتَبِعُوهُمْ بِقِرْيَبٍ مِنْ مَائَةِ رَامٍ، فَأَقْبَقُوا آثَارَهُمْ حَتَّى أَتَوْا مَنْزِلًا نَزَلُوهُ فَوَجَدُوا فِيهِ نَوَى تَمْرِ تَزَوَّدُوهُ مِنَ الْمَدْيَنَةِ فَقَالُوا هَذَا تَمْرِي تَرِبَ. فَتَبِعُوا آثَارَهُمْ حَتَّى لَحِقُوهُمْ، فَلَمَّا انْتَهَى عَاصِمٌ وَأَصْحَابُهُ لَجِئُوا إِلَى فَدْفِدٍ، وَجَاءَ الْقَوْمُ فَأَحَاطُوا بِهِمْ، فَقَالُوا لَكُمْ الْعَهْدُ وَالْمِيثَاقُ إِنْ نَزَلْتُمْ إِلَيْنَا أَنْ لَا نَقْتُلَ مِنْكُمْ رَجُلًا. فَقَالَ عَاصِمٌ أَمَا أَنَا فَلَا أَنْزِلُ فِي ذِمَّةِ كَافِرٍ، اللَّهُمَّ أَخْبِرْ عَنْ نَبِيِّكَ. فَقَاتَلُوهُمْ حَتَّى قَاتَلُوا عَاصِمًا فِي سَبْعَةِ نَفَرٍ بِلِئْلٍ، وَبَقِيَ خُبَيْبٌ، وَزَيْدٌ وَرَجُلٌ آخَرٌ، فَأَعْطَوْهُمْ الْعَهْدَ وَالْمِيثَاقَ، فَلَمَّا أَعْطَوْهُمْ الْعَهْدَ وَالْمِيثَاقَ نَزَلُوا إِلَيْهِمْ، فَلَمَّا اسْتَمَكَّنُوا مِنْهُمْ حَلُّوا أَوْتَارَ قَسِيهِمْ فَارْبَطُوهُمْ بِهَا. فَقَالَ الرَّجُلُ الثَّلَاثُ الَّذِي مَعَهُمَا هَذَا أَوَّلُ الْغَدْرِ. فَأَبَى أَنْ يَصْحَبَهُمْ فَجَرَرُوهُ وَعَالَجُوهُ عَلَى أَنْ يَصْحَبَهُمْ، فَلَمْ يَفْعَلْ، فَقَاتَلُوهُ، وَإِنْ طَلَقُوا بِخُبَيْبٍ وَزَيْدٍ حَتَّى بَاعُوهُمَا بِمَكَّةَ، فَاشْتَرَى خُبَيْبًا بَنُو الْحَارِثِ بْنِ عَامِرِ بْنِ نَوْفَلٍ، وَكَانَ خُبَيْبٌ هُوَ

قَتَلَ الْحَارِثَ يَوْمَ بَدْرٍ، فَمَكَثَ عِنْدَهُمْ أَسِيرًا حَتَّى إِذَا أُجْمِعُوا
قَتَلَهُ اسْتَعَارَ مُوسَى مِنْ بَعْضِ بَنَاتِ الْحَارِثِ اسْتَحْدَّ بِهَا
فَاعَارَتْهُ، قَالَتْ فَغَفَلْتُ عَنْ صَبِيٍّ لِي فَدَرَجَ إِلَيْهِ حَتَّى أَتَاهُ،
فَوَضَعَهُ عَلَى فَخْذِهِ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُ فَزَعْتُ فَزَعَةً عَرَفَ ذَاكَ
مِنِّْي، وَفِي يَدِهِ الْمَوْسَى فَقَالَ أَتَخْشَيْنَ أَنْ أَقْتُلَهُ مَا كُنْتُ
لأَفْعَلَ ذَاكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ. وَكَانَتْ تَقُولُ مَا رَأَيْتُ أَسِيرًا قَطُّ خَيْرًا
مِنْ خُبَيْبٍ، لَقَدْ رَأَيْتُهُ يَأْكُلُ مِنْ قُطْفٍ عَنِيبٍ، وَمَا بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ
ثَمَرَةٌ، وَإِنَّهُ لَمُوثَقٌ فِي الْحَدِيدِ، وَمَا كَانَ إِلَّا رِزْقُ رَزَقَهُ اللَّهُ،
فَخَرَجُوا بِهِ مِنَ الْحَرَمِ، لِيَقْتُلُوهُ فَقَالَ دَعُونِي أَصْلِي
رَكَعَتَيْنِ. ثُمَّ أَنْصَرَفَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ لَوْلَا أَنْ تَرَوْا أَنَّ مَا بِي جَزَعٌ
مِنَ الْمَوْتِ، لَزِدْتُ. فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ سَنَّ الرُّكَعَتَيْنِ عِنْدَ الْقَتْلِ هُوَ،
ثُمَّ قَالَ اللَّهُمَّ أَحْصِهِمْ عَدَدًا ثُمَّ قَالَ مَا أَبَالِي حِينَ أَقْتُلُ مُسْلِمًا
عَلَى أَيِّ شَرْقٍ كَانَ لِلَّهِ مَضْرَعِي وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الْإِلَهِ وَإِنْ يَشَأْ
يُبَارِكْ عَلَى أَوْصَالِ شَرِّهِمْ مُمْزَعٌ ثُمَّ قَامَ إِلَيْهِ عُقْبَةُ بْنُ الْحَارِثِ
فَقَتَلَهُ، وَبَعَثَ قُرَيْشٌ إِلَى عَاصِمٍ لِيُؤْتُوا بِشَرِّهِ مِنْ جَسَدِهِ
يَعْرِفُونَهُ، وَكَانَ عَاصِمٌ قَتَلَ عَظِيمًا مِنْ عَظَمَائِهِمْ يَوْمَ بَدْرٍ،
فَبَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِثْلَ الظُّلَّةِ مِنَ الدَّبْرِ، فَحَمَتَهُ مِنْ رُسُلِهِمْ،
فَلَمْ يَقْدِرُوا مِنْهُ عَلَى شَيْءٍ. ٢٨

٢٨. صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الرجيع ورعل وذكوان وبئر معونة، رقم ٤٠٨٦، عن أبي هريرة رضي الله عنه. وفي تسمية القاتل روى البخاري عقب ذلك، رقم ٤٠٨٧، عن جابر: «الذي قتل خُبَيْبًا هُوَ أَبُو سِرْوَةَ». الفدغد: مرتفع من الأرض؛ والموسى: آلة الحلق؛ والدب: الزنابير.

لم يأت التوكل هنا بنجاة دنيوية. وهذه حقيقة لا يصح أن نخفيها: قد يكون العبد متوكلاً صادقاً ثم يقع عليه ما يكره. كفاية الله أوسع من أن تختصر في سلامة الجسد. حفظ الله لخبيب دينه وثباته، ورفع ذكره، ولم يجعله أسير خوف قاتليّه.

إذا ربطنا التوكل دائماً بالنجاة التي نراها، أسأنا إلى كل مبتلى ثبت ولم تتبدل حاله. النصرة قد يكون أن لا تبيع دينك، وأن تلقى الله صادقاً. ولا يعني هذا أن نطالب البلاء؛ نسأل العافية، ونبذل للنجاة، فإذا وقع ما لا ندفعه ثبتنا بالله.

في ركعتي خبيب درس هادي: عندما يضيق الزمن، لا تزال لك صلاة لا يستطيع عدو أن ينتزعها.

أصحاب الكهف يهاجرون بدينهم

قال الله تعالى:

﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً
وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾^{٢٩}

وقال سبحانه:

﴿إِن خُنُّنَ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فَتْيَةٌ آمَنُوا
بِرَبِّهِمْ وَذُنَّاهُمْ هَدَى ۖ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا
فَقَالُوا رَبَّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَدْعُو مِن دُونِهِ إِلَهًا لَّقَدْ
قُلْنَا إِذَا شِطَطَّا ۖ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا
يَأْتُونَ عَلَيَّهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ
كَذِبًا ۖ وَإِذْ اغْتَزَتْ مُوهُمُ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْوَا إِلَى
الْكَهْفِ يَنشُرُ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِّن رَّحْمَتِهِ وَيَهَيِّئُ لَكُمْ مِّنْ أَمْرِكُمْ
مِّرْفَقًا﴾^{٣٠}

جمع الفتية بـين اعتزال الفتنة وطلب الرحمة والرشد من الله. كان الكهف مأوى أخذوا به، ولم يجعلوه بدلاً من افتقارهم إلى ربهم.

٢٩. الكهف: ١٠.

٣٠. الكهف: ١٣-١٦.

ليس كل ان سحب جبناً، ولا كل مواجهة شجاعة. قد يكون حفظ الدين في ترك مجلس أو علاقة أو وظيفة تفسد القلب. ويحتاج القرار إلى فقه واستشارة، لا إلى اندفاع. لكن لا تجعل خوف الرزق حجة للبقاء في باب تعلم أنه يهدمك. حين تترك لله، لا تزعم أنك تعرف التعويض. اسأل ربك الرحمة والرشد. أنت تطلب الطريق الراشد، لا نسخة من الطريق القديم.

الخنندق والعمل تحت الحصار

جاء في الخبر:

«جَعَلَ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ يَحْفِرُونَ الْخَنْدَقَ حَوْلَ الْمَدِينَةِ، وَيَنْقُلُونَ التُّرَابَ عَلَى مُتُونِهِمْ وَهُمْ يَقُولُونَ نَحْنُ الَّذِينَ بَأَيُّعُوا مُحَمَّدًا عَلَى الْإِسْلَامِ مَا بَقِيَ نَا أَبَدًا قَالَ يَقُولُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يُجِيبُهُمْ " اللَّهُمَّ إِنَّهُ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُ الْآخِرَةِ، فَبَارِكْ فِي الْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَةِ ". قَالَ يُوْتُونَ بِمِلْءِ كَفَيٍّ مِنَ الشَّرِيعِ فِي صُنْعٍ لَهُمْ بِإِهَالَةِ سَنَخَةٍ تَوْضَعُ بَيْنَ يَدَيِ الْقَوْمِ، وَالْقَوْمُ جِياعٌ، وَهِيَ بَشْرَةٌ فِي الْحَلْقِ وَلَهَا رِيحٌ مُنْتِنٌ. »^{٣١}

وقال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝ إِذْ جَاءَكُمْ مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ۝ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾^{٣٢}

٣١. صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب، رقم ٤١٠٠، عن أنس رضي الله عنه.
الإهالة السنخية: دهن متغير الرائحة.

٣٢. الأحزاب: ٩-١١.

وقال سبحانه:

﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ
وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾^{٣٣}

اجتمع في المشهد خوف شديداً وعمل حاضر، ولم تجعل
المشقة الاستجابة لله مستحيمة.

حفر الخندق لم يخلق الريح، والريح لم تجعل الحفر عبثاً.
هذا هو اجتماع السبب والقدر. في أزمات الأسرة أو العمل، قد لا
يكون في يدك إلا خندق صغير: ميزانية من ضبطة، اتصال
بطبيب، كلمة صلح. احفره بإحسان، ولا تزعم أنه وحده
يحميك.

حين تبلغ القلوب الحناجر، لا تحتقر العمل الجماعي ولا الدعاء.
قد يفتح الله من حيث لا ترى بعد أن تؤدي ما ترى.

وقفة الباب الخامس | الخوف حين يفقد حق القيادة

الخوف يحتاج أولاً إلى تسمية واضحة. هل أمامك خطر حاضر،
أم احتمال بعيد، أم خبر لم تثبت منه؟ تختلف الخطوة
بأختلاف الجواب. طاب الحماية عند الخطر من الأخذ بالأسباب،
أما تكرار قراءة الخبر بنفسه فلن يضيء معلومة.

٣٣. الأحزاب: ٢٢.

في مثال تمثيلي، وصل إلى موظفة تهديد بسبب رفضها تغيير بيانات عمل. لا يطلب منها التوكل أن تواجه وحدها لتثبت شجاعتها؛ تحفظ ما يلزم من أدلة، وتطلب حماية موثوقة، وتتبع طريقتاً آمناً لبيان الحقيقة. ويبقى الدعاء معيناً لها على أداء ما تقدر عليه.

وقد يكون المخيف تقييماً للناس لا تهديداً فعلياً. هنا يحتاج القلب أن يميز بين سمعة لها حقوق وصورة يستنزف نفسه لحمايتها. الاعتذار عن خطأ لا ينقص كرامته، وطلب العون لا يسقط صدقه.

إذا اشتد الخوف حتى عطل حياة الإنسان، فطلب المساعدة المتخصصة سبب مشروع. لا نحكم على إيمانه من اضطرابه، ولا نحمله فوق ما يستطيع. نعينه على خطوة آمنة، ونحفظ له حقه في الرحمة.

تطبيقات الباب الخامس | قرار الخوف

حين تخاف، لا تسأل نفسك أولاً «كيف أتوقف عن الخوف؟» بل «ما القرار الصحيح مع وجود الخوف؟». قد يكون القرار طلب حماية، أو تأجيل مواجهة حتى تستعد، أو قول حق، أو مغادرة مكان، أو مراجعة مختص. بهذه الطريقة لا تجعل زوال الشرعور شرطاً للحركة.

بعد تحديد القرار، قلل مساحة المجهول بقدر معقول. اجمع معلوماتين أو ثلاثاً مؤثرتين، لا عشرات الاحتمالات النادرة. الخوف يحب التفاصيل التي لا نهاية لها. أنت تحتاج ما يكفي للعمل، لا موسوعة في كل ما يمكن أن يحدث.

واختر وقتاً ومكاناً يعينان على هدوء النظر، واستعن بشخص موثوق إن احتجت. أما الخطر العاجل فالأولوية فيه لطلاب الحماية المناسبة.

وإذا وجدت أن الخوف تجاوز الحد وصار يمنعك من الحياة أو يدفعك إلى طقوس متكررة، اعتبر طلاب المساعدة خطوة شجاعة. التوكل لا يقتضي أن تعالج كل شيء وحدك. أحياناً يكون فتح باب المختص هو السبب الذي طال تأجيله.

الباب السادس: الخطة والتفويض

الهجرة خطة كاملة

قال الله تعالى:

﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ
اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ
مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا
وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ
عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^{٣٤}

وجاء في الخبر:

«قُلْتُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَا فِي الْغَارِ لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ
نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرَنَا. فَقَالَ " مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ
بِاثْنَيْنِ؟ اللَّهُ ثَاثُهُمَا. »^{٣٥}

في الغاري ظهر حد القدرة البشرية وحفظ الله الذي لا تحيط
به الحسابات. وتوضح أسباب الرحلة في خبري الزاد والدليل
الآتيين؛ فلا يصح جعل التوكل حجة لترك الاستعداد.

٣٤. التوبة: ٤٠.

٣٥. صحيح البخاري، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب المهاجرين وفضلهم، رقم ٣٦٥٣،
عن أبي بكر رضي الله عنه. المعية هنا معية نصر وتأييد.

لو كانت الأسباب تناقض التوكل لما أخذ بها أكمل المتوكلين
وَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْ. ولو كانت الأسباب تكفي وحدها لما كان للسكينة والمعينة
هذا الموضع. الخطة عبادة حين يقي قصد بها أداء الواجب، والتوكل
روحها حين لا يعبد القلب تفاصيلها.

تعلمنا الهجرة ألا نجعل الارتجال دليلاً صدق، ولا كشف كل شيء
علامة إخلاص. التخطيط حفظ للأمانة، والسر المشروع حماية
للمقصد، والخبرة تؤخذ ممن يملكها. لكن الخطة تظل محدودة؛
فقد وصف أبو بكر قرب المطاردين، وبقي حفظ الله فوق
الحساب.

خطط كأنك مسؤول عن كل سبب في يدك، وتوكل وأنت تعلم
أن كل سبب في يد الله.

أسماء تحمل الزاد

جاء في الخبر:

«صَنَعَتْ سُفْرَةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَيْتِ أَبِي بَكْرٍ حِينَ أَرَادَ أَنْ يُهَاجِرَ إِلَى الْمَدِينَةِ، قَالَتْ فَلَمْ نَجِدْ لِسُفْرَتِهِ وَلَا لِسِقَائِهِ مَا نَرْبِطُهُمَا بِهِ، فَقُلْتُ لِأَبِي بَكْرٍ وَاللَّهِ مَا أَجْدُ شَيْئًا أَرْبِطُ بِهِ إِلَّا نِطَاقِي. قَالَ فَشُقِّيهِ بِيَاثْنَيْنِ، فَارْبِطِيهِ بِوَاحِدِ السَّقَاءِ وَبِالْآخِرِ السُّفْرَةَ. فَفَعَلْتُ، فَإِذْ لَكَ سُمِّيَتْ ذَاتَ النِّطَاقَيْنِ.»^{٣٦}

تظهر في مشهد الهجرة أعمال تبدو صغيرة أمام حدث عظيم: طعام يُعد ورباط يُحكم. لم يكن التوكل مهمة رجل واحد في الغار؛ شارك فيه بيت يؤدي كل فرد منه سبباً يناسبه. قد تحقر ما تقوم به لأنك لست صاحب القرار الكبير. أم تترتب دواء مريض، وموظف يراجع رقماً، وطفل يحمل حاجة؛ هذه الأعمال الصغيرة قد تحفظ مشروعاً كاملاً إذا أدت بأمانة. ليس الفضل دائماً في الموضع الذي تراه العيون.

^{٣٦} صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب حمل الزاد في الغزو، رقم ٢٩٧٩، عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما. السفارة: زاد المسافر ووعاؤه؛ والنطاق: ما تشد به المرأة وسطها.

اسأل في كل خطوة: من غاب حقه؟ من يحمل التفاصيل
بصمت؟ اشكر الناس، ولا تنس أن الله هو الذي جمع تلك
الأسباب وبارك فيها.

الدليل الذي يعرف الطريق

جاء في الخبر:

«وَأَسْتَأْجِرَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبُو بَكْرٍ رَجُلًا مِنْ
بَنِي الدَّيْلِ ثُمَّ مِنْ بَنِي عَبْدِ بَنٍ عَدِيٍّ هَادِيًا خَرِيَّتًا -
الْخَرِيَّتُ الْمَاهِرُ بِالْهَدَايَةِ - قَدْ غَمَسَ يَمِينُ حُلْفٍ فِي آلِ الْعَاصِ
بَنٍ وَائِلٍ، وَهُوَ عَلَى دِينِ كُفَّارٍ قُرَيْشِيٍّ، فَأَمْنَاهُ فَدَفَعَا إِلَيْهِ
رَاحِلَتَيْهِمَا، وَوَعَدَاهُ غَارَ ثَوْرٍ بَعْدَ ثَلَاثِ لَيَالٍ، فَأَتَاهُمَا
بِرَاحِلَتَيْهِمَا، صَبِيحَةَ لَيَالٍ ثَلَاثٍ، فَارْتَحَلَا، وَانْطَلَقَ مَعَهُمَا
عَامِرُ بْنُ فَهَيْرَةَ، وَالِدُّ الدَّيْلِ إِلَيْهِ فَأَخَذَ بِهِمْ أَسْفَلَ مَكَّةَ وَهُوَ
طَرِيقُ السَّاحِلِ».^{٣٧}

في هذا العمل تقدير للخبرة والأمانة معًا. لم يكن الاعتقاد على
الله حجة لتترك من يعرف مسالك الطريق، ولم يكن اختلاف
الدليل في الدين مانعًا من الانتفاع بخبرته في هذه المهمة
التي أوثمن عليها. وتراعى في سائر المعاملات أحكامها
وظروفها.

^{٣٧} صحيح البخاري، كتاب الإجارة، رقم ٢٢٦٣، عن عائشة رضي الله عنها. يروي الخبر استيجار دليل
ماهر مأمون في هذه الرحلة.

من تمام التوكل أن تعرف موضع جهلك. الطبيب أعلم بالدواء،
والمحاسب أعلم بالتكلفة، وصاحب الطريق أعلم بمسالكه.
سؤالهم ليس ضعفاً في الإيمان؛ هو اعتراف بحدودك
واستعمال لما بثه الله بين الناس من علوم.
لكن الخبرة لا تمنح صاحبها عصمة. تسأله في فنه، وتقارن
إن احتجت، وتبقى الأحكام الشرعية والقيم فوق الرأي
الفني. ولا تحول الخبر إلى كاهن يحدك بالمستقبل.
كلما واجهت قراراً، فرق بين ما يحتاج علماً شرعياً، وما
يحتاج خبرة دنيوية، وما يحتاج معرفة خاصة بحالك. ثم
اجمعها من غير أن تجعل واحداً منها رب النتيحة.

السر لا يناقض الصدق

حفظ المعلومات قد يكون من الأمانة. في خبر الدليل المتقدم موعد ومكان وطريق محدد؛ ومن فقه التخطيط أن تعرف من يحتاج إلى المعلومة ومتى يحتاجها. لا يلزم من الصدق أن تجعل أسرار أهلك أو عملك متاحة لكل سائل.

بعض الناس يفسد عملاً نافعاً لأنه يعلن عنه قبل أوانه، أو يخبر من لا يؤتمن، ثم يسمي ذلك بساطة وتوكلاً. الأمانة تقتضي أن يوضع الخبر عند من يحتاجه. وحفظ الخصوصية من الأسباب، ولا ينافي صفاء القلب.

وفي المقابل، لا يستخدم «السر» لإخفاء ظلم أو غش أو إسقاط حق. الميزان هو الشرع والأمانة: هل في الكتمان حفظ لمصلحة مشروعة، أم حماية لمعصية؟

خطتك ليست أقوى بكثير من يعرفها. استعن بالله، واختر دأيرة العلم بها، ثم لا تتعش أسير الخوف من انكشافها. أنت تحفظ ما تستطيع، والله خير حافظاً.

الحديبية وما خفي من الفتحة

جاء في الخبر:

«أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَسِيرُ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، وَعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يَسِيرُ مَعَهُ لَيْلًا، فَسَأَلَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ عَنْ شَيْءٍ فَلَمْ يُجِبْهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ سَأَلَهُ فَلَمْ يُجِبْهُ، ثُمَّ سَأَلَهُ فَلَمْ يُجِبْهُ وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ثَكَلَتْكَ أُمُّكَ يَا عُمَرُ، نَزَرَتْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، كُلُّ ذَلِكَ لَا يُجِيبُكَ. قَالَ عُمَرُ فَحَرَّكَتُ بَعْضِي ثُمَّ تَقَدَّمْتُ أَمَامَ الْمُسْلِمِينَ، وَخَشِيتُ أَنْ يَنْزَلَ فِيَّ قُرْآنٌ، فَمَا نَشَرَبْتُ أَنْ سَمِعْتُ صَارِخًا يَصْرُخُ بِي - قَالَ - فَقُلْتُ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ يَكُونَ نَزَلَ فِيَّ قُرْآنٌ. وَجِئْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَقَالَ "لَقَدْ أَنْزَلْتُ عَلَى اللَّيْلَةِ سُورَةً لَهَا أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ، ثُمَّ قَرَأْتُ {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا}." «^{٣٨}

يحمل الخبر ان تقالاً من خشيّة عمر أن ينزل فيه قرآن إلى سماع النبي ﷺ يفرح بسورة الفتحة. ما يثقل القلب في لحظة لا يكشف له كل ما بعدها. ولا يملك القارئ أن يحول ذلك إلى وعد بأن كل قرار مؤلم سيُعطي النتيجة التي يريده.

٣٨. صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، رقم ٤١٧٧، من خبر عمر رضي الله عنه. نزلت: ألحدت؛ وما نشبت: ما لبثت.

في قراراتنا قد نضطر إلى قبول نتيجَة أقل من أملنا بعد
استيفاء النظر. لا تجعل ألمك دليلاً قاطعاً على فساد القرار.
راجع الحقائق، ووفِّ بالعهد المشروع، وانظر ما يكشفه
الزمن من آثار.

قد يأتي الفتح في صورة لم تسمها فتحة يوم وقعت.
والمتوكل لا يعبد الاسم الأول للأحداث.

إذا عزمتم فلا تبق أسير التردد

بعد المشاورة والاستشارة والنظريأتي العزم. ليس من التوكل أن تعيد القرار كل صباح لأن الغيب لم ينكشف. ستظل احتمالات لا تعرفها؛ وهذه هي المساحة التي تعبد الله فيها بالتوكل.

التردد يستنزف القوة التي تحتاجها للتنفيذ. وقد يجعل الإنسان يسأل عشرة أشخاص، ثم يعود إلى أول السؤال كلما سمع احتمالاً جديداً. العلاج ليس اندفاعاً، بل حدًا واضحًا لجمع المعلومات وموعداً للقرار.

إذا عزمتم، فامض مع بقاء باب المراجعة إذا ظهرت حقيقة جديدة. العزم ليس عناداً، والتراجع عن الخطأ ليس نقصاً في التوكل. إنما النقص أن تتحرك مع كل خاطر، فلا تستقر على حق ولا تنجز واجباً.

صل الاستشارة بدعائها المأثور، ثم امض فيما ترجح بعد النظر والمشاورة، ولا تجعل غيب الرؤيا أو الشعور الاستثنائي سبباً لتعليق حياتك.

وقفة الباب السادس | التخطيط الذي يعرف حدوده

الخطة الجيدة تعرف مقصدها قبل أدواتها. قد تجمع اجتماعات وجداول كثيرة، ثم تكتشف أن أحداً لم يحدد المطلوب. اكتب النتيجة التي تعمل لها وحدود صلاحيتك والموعود الذي تحتاج فيه إلى قرار.

في مثال تمثيلي، ينظم فريق توزيع سلال غذائية. يتولى أحدهم مطابقة الأعداد، وآخر الاتصال بالمستفيدين، وثالث النقل. لا تقل قيمة من يراجع عنواناً عن قيمة من يظهر أمام الناس؛ خطأ صغير قد يحرّم أسرة حقها. والتوكل في هذا العمل عناية بالافاصيل مع حفظ كرامة المستفيد وسرية بياناته.

إذا تعطل النقل فلا يكفي اللوم. يسأل الفريق عما يمكن تصحيحه، ومن يستطيع المساعدة، وكيف يبلغ أصحاب الحق بالتحسين. لا يعطي التنظيم ضماناً مطلقاً، لكنه يجعل المسؤولية واضحة ويعين على الإصلاح.

وللمراجعة موعد كذلك. تتغير الخطة إذا ظهر عائق مؤثر، ولا تتقلب مع كل خاطر. ما تحتاجه هو قدر مناسب من المعرفة ثم تنفيذاً أميناً، لا خطة تمنع كل احتمال إلى الأبد.

تطبيقات الباب السادس | خطة لها موعد للحسم

خذ قرارًا مؤجلًا واكتب سؤال القرار في سطر واحد. لا تقل «ماذا أفعل بحياتي؟» بل «هل أقبل العرض الفلاني؟» أو «هل أبدأ المشروع بحجم تجريبي؟». السؤال الواضح يقلل الضباب.

بعده حدد ثلاثة معايير لا أكثر في البداية: الحكم الشرعي، الأثر المالي أو الصحي، والملاءمة لظروفك مثلاً. اجمع لكل معيار ما يكفي من معلومات من مصدر مناسب. لا تسمح لنفسك بإضافة معيار جديد كلما لم تعجبك النتيجة، إلا إذا ظهر أمر جوهري.

ضع موعدًا للحسم. قبل الموعد استشر واستخر، وبعده اتخذ القرار ما لم تظهر حقيقة جديدة. وجود الموعد يمنع القلق من جعل البحث وظيفية دائمة. وإذا كان القرار قابلاً للتجربة، صمم تجربة محدودة بوقت ومقاييس واضحة.

بعد التنبؤ لا تراقب كل دقيقة. حدد موعد مراجعة منطقيًا: أسبوعًا أو شهرًا بحسب القرار. هذه المسافة جزء من التفويض، لأنها تسمح للسبب أن يعمل وتمنعك من تخريب الخطة بتعديلات عصبية متلاحقة.

الباب السابع: الرزق والعمل

من يرزق القلب؟

يقول الإنسان إن الله هو الرزاق، ثم يضطرب قلبه عند باب مدير أو عميل كأن رزقه خُلِقَ هناك. السبب ظاهر قريبي، ولذلك يزاحم المعنى الغيبي. والتوكل لا يطلب أن تنكر أثر الباب، بل أن تعرف من فتحة ومن يقدّر أن يفتح غيظه. قال الله تعالى:

{إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ}٣٩

رزقه لا يقتصر على المال؛ منه العافية والعلم والمحبة والوقت والسكينة. وقد يوسع على عبد في شيء ويضيق عليه في آخر، وكلنا فقراء إليه.

لا يحمل هذا المعنى على ترك طلب الرزق. قال سبحانه:

{هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ۚ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ}٤٠

مشي منك، ورزق منه. التعب لا يجعلك خالقاً لما كسبت، وانتظار الفضل لا يعفيك من المشي.

٣٩. الذاريات: ٥٨.

٤٠. الملك: ١٥.

إذا دخلت عملك فقل: هذا باب من أبواب رزق الله، وليس
خزائنه كلها. أحسنه، ولا تتبع لأجله دينك أو كرامة غيرك.

العمل الحلال عبادة

قد يظن بعض الناس أن التوكل معنى يخصص للمتفرغ للعبادة، وأن السوق بعيده عنه. لكن السوق من أكثر المواضع امتحاناً للاعتقاد: فيه الخوف من الخسارة، والرغبة في الزيادة، وإغراء الغش، وتعليق القلب بالأرقام.

العمل الحلال عبادة بالنية والصدق وأداء الحقوق. تذهب لتكف نفسك ومن تعول عن الحرام، وتنفع الناس، وتؤدي الأمانة. ولا يحتاج العمل إلى اسم ديني حتى يكون طريفاً إلى الله؛ يحتاج إلى حكم صحيح وقصد صالح.

قال رسول الله ﷺ:

«أَبِيَّعَانَ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا - أَوْ قَالَ حَتَّى يَتَفَرَّقَا - فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَّا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا، وَإِنْ كَتَمَا وَكَذَبَا مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا»^{٤١}

قد يظن التاجر أن الكتمان يحفظ رزقه، فيضيع البركة ليحفظ صفقة. المتوكل يصدق لأن خزائن الله لا تفتح بمعصيته.

٤١. صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب إذا بىن البىعان ولم يكتما ونصحا، رقم ٢٠٧٩، عن حكيم بن حزام رضى الله عنه.

اجعل أثر التوكل في عملك قابلاً للرؤية: جودة، وموعد
محفوظ، وعيب مبین، وحق مؤدى. القلوب أعمالها خفية، لكن
صدقها يظهري.

المهنة وكرامة الإنسان

نحتاج إلى المهنة، ونبني فيها خبرة، وقد تصبح جزءاً من هويتنا. لكن الخطر أن تصبح هي الجواب الوحيد عن سؤال القيمة والأمان: إن بقيت في هذا المنصب فأنا بخير، وإن خرجت منه فلا شيء لي.

المهنة سبب رزق ومساحة أمانة، ولا تمنح صاحبها ضماناً لكل ما يرجو. قد يغلق بابها مع بقاء قدراتك، وقد تتغير قدراتك مع بقاء كرامتك عبداً لله. لا تجعل مسماك الوظيفي أوسع من اسمك عند ربك.

هذا لا يعني الاستهانة بالخبرة أو ترك الطموح. طور نفسك، واطلب الزيادة بالحلال، لكن اسأل قلبك: هل أقبل الظلم كي لا أفقد مكاني؟ هل أحتقر الناس بحسب وظائفهم؟ هل ينهار معنى حياتي إذا تغيرت بطاقتي؟

من توكل على الله عمل بإتقان، وسعى إلى تغيير ما لا يرضى من عمله، وسأل أهل العلم عما أشكل من حاله. يعلم أن الذي رزقه أول مرة لم تنفذ أبوابه.

حين يفقد الإنسان وظيفته

فقد العمل ليس فكرة وعظيمة؛ قد يعني ديناً وفرة وأطفالاً وخوفاً من الأيام. لا يصح أن نقول للمبتلى «توكل» ثم نغفل عن حقه في المساعدة والبحث والتخطيئ. الكلمة الصادقة تحمل معه بعض السبب.

يبدأ المتوكل بالاعتراف بما وقع، لا بإنكاره. يحصي ما عنده، ويقلل ما يمكن، ويسأل عن حقه، ويحدث سيرته، ويتصل بمن يعرف، ويتعلم ما يفتح باباً. وفي الوقت نفسه يحرس قلبه من أن يجعل الرفض حكماً على قيمته أو على رحمة الله.

قال سبحانه:

﴿إِذَا بَلَغَ الْإِنْسَانُ أُمَّتَهُ فَلْيَسْكُوهِنَّ فِي مَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوِي عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَُم يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾^{٤٢}

الوعد يَدْعُو إلى التَّقْوَى، فلا يُطْلَب المَخْرَج بِطَرِيقٍ مُحْرَمٍ، ولا
يُجَدَّد الْعَبْدُ مَوْعِدَهُ.

إِنْ كُنْتَ قَرِيباً مِنْ عَاطِلٍ، فَلا تُكْتَفِ بِالْإِنْصِيحَةِ. كُنْ سَبَباً:
رَاجِعَ مَعَهُ، أَوْ دَلَّهُ، أَوْ أَعْنَهُ بِسِرٍّ. وَرَبِّمَا كَانَ تَوَكُّلُكَ أَنْتَ أَنْ
تَنْفَقَ وَلا تُخْشَى الْفَقْرَ.

الدين وخطة الوفاء

قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ يُرِيدُ أَدَاءَهَا أَدَّى اللَّهُ عَنْهُ، وَمَنْ أَخَذَ يُرِيدُ
إِتْلَافَهَا أَتْلَفَهُ اللَّهُ.»^{٤٣}

الدين حق للناس، والنية الصادقة تظهر في طلب الوفاء وبذل سببه. لا تكفي كلمة طيبة يكرر معها التأجيل من غير عذر.

اكتب ما عليك، واعرف آجاله، وتواصل قبل التعثر، وقدم الضروري، ولا تدخل ديناً جديداً لتغطي نمط حياة تستطيع تغييره. وإذا ضاق بك الأمر، فاطلب مهلة أو مساعدة بصدق. الاخْتِباء لا يحفظ كرامتك؛ أداء الحق يحفظها.

ولا يجوز للدائن أن يقسو ويستغل، كما لا يجوز للمدين أن يحتج بالتوكل على مال غيره. قال الله تعالى في المعسر:

﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^{٤٤}

٤٣. صحيح البخاري، كتاب في الاستقراض وأداء الديون والحجر والتفليس، باب من أخذ أموال الناس يريد أداءها أو إتلافها، رقم ٢٣٨٧، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

٤٤. البقرة: ٢٨٠.

للأبواب عبادة على الطرفين.

اسأل الله العون على الوفاء، ثم افتح دفتر التزاماتك. الدعاء
يهد القلب، والصدق ينظم الخطوة، والله يعين من أراد الأداء.

الادخار ومسؤولية الأهل

جاء في الخبر:

«أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَبِيعُ نَخْلَ بَنِي
النَّضِيرِ، وَيَحْبِسُ لِأَهْلِهِ قُوتَ سَنَتِهِمْ».^{٤٥}

هذا الفعل النبوي يرد على من يظن أن كل ادخار يناقض
التوكل. تدبير نفقة الأهل من المسؤولية، ويقدّر الاحتياط
بحسب الحاجة والقدرة والحقوق.

لكن الادخار قد يتحول إلى خوف لا يشرب. يبدأ بما يكفي
الحاجة، ثم يريد ضمان أعوام لا يملكها، ويمنع الحق الواجب،
ويقسو على بيته. الفرق ليس في وجود المال وحده، بل في
حكمه وقصد القلب وأداء الحقوق.

ضع ميزانية، وابن احتياطاً مناسباً، وأمن حاجات من تعمل
بالوسائل المباحة، ثم لا تجعل الرقم شرط طمأنينة. قد
يذهب المدخر بقدر، وقد يحفظه الله، ورزقك لا ينحصر فيه.
التوكل لا يجعل الأسرة تدفع ثمن نزعة فردية تسمي نفسها
زهذاً. ومن الرحمة أن تخطط لهم، ومن الإيمان أن تعلم أن خططك
لا تستقل بحفظهم.

٤٥. صحيح البخاري، كتاب النفقات، باب حبس نفقة الرجل قوت سنة على أهله وكيفية نفقات
العيال، رقم ٥٣٥٧، عن عمر رضي الله عنه.

وقفه الباب السابع | الرزق بين الكسب والافتقار

للرزق أمانة عند مجيئه وعند ضيقه. حين يأتي المال تظهر حقوقه، وحين يقل تظهر الحاجة إلى ترتيب الأولويات وصدق البيان. وفي الحالي لا يصلح الخوف ذريعة للكذب أو الغش أو إسقاط حق من تعول.

في مثال تمثيلي، تعطلت آلة في ورشة صغيرة قبل موعد تسليم. يستطيع صاحبها أن يخفي العيب ويعد بما لا يقدر عليه، أو أن يشرح للعميل الواقع ويعرض موعدًا ممكنًا أو حلًا عادلًا. التوكل يظهر في هذا الصدق، وإن كان مؤلمًا في حساب الربح القريب.

والتعثر لا يسقط قيمة الإنسان. من فقد عمله يحتاج إلى مساعدة عملية، لا إلى امتحان متكرر لصبره. قد تكون معونتك مراجعة سيرته أو تعريفه بفرصة أو تخفيف التزام عنه بما تقدر عليه.

أما الادخار في خدم المسؤولية ما دام يحفظ الحقوق. لا يوجد رقم واحد يلزم كل أسرة؛ تختلف الحاجات والموارد. راجع ما تستطيع حفظه وما يجب أدائه، ولا تجعل بلوغ مبلغ بعينه شرطًا لكل راحة أو كل إحسان.

تطبيق الباب السابع | ميزانية قلب ومال

في باب الرزق ابدأ من الواقع لا من الخوف. اكتب دخلك والتزاماتك وديونك والضروري من النفقة. الأرقام هنا ليست عبادة؛ هي كشف للأمانة. كثيرون من القلق المالي يتضخم لأن الإنسان لا يعرف وضعه بدقة.

بعدها حدد خطوة تحفظ الحق: سداد مبلغ، إيقاف نفقة غير ضرورية، طاب مهلة، تعلم مهارة، أو بحث منظم عن عمل. لا تجعل الخطة كلها قائمة على أمنية زيادة الدخل؛ ابن جزءاً مما تستطيع على الموجد.

وفي الوقت نفسه راقب القلب حين يرى الرقم. إذا ارتفع لا تستغن، وإذا انخفض لا تيأس. الرقم مهم لكنه ليس حكماً على عناية الله بك. استخدمه لاتخاذ قرار، لا لتعريف قيمتك.

خصص كذلك جزءاً للشكر والعطاء بحسب استطاعتك وحقوقك. المال الذي لا يخرج منه حقه بسهولة يتحول إلى قيد. والمراد ليس إنفاقاً متهوراً، بل تربوية القلب على أن الرزق وسيلة عبادة ومسؤولية.

الباب الثامن: المرض والعافية

التوكل لا يُلغي الألم

يمرض المتوكل، ويتألم، وقد يخاف من التشخيص. ليست العافية شهادة وحيدة على رضا الله، وليس المرض حكماً بأن القلب فشل. الآن بياء عليهم السلام ابتلوا، ودعوا، وصبروا، وأخذوا بما تيسر.

المشكلة أن بعض الخطاب يحمل المريض عبئاً إضافياً: إن حزنات فأنت ضعيف التوكل، وإن لم تُشف فدعاؤك ناقص. وهذا ظلم. يجوز للمريض أن يشكو ألمه لمن يعالجه، وأن يبكي، وأن يطلب الدعاء؛ والمنهي عنه اعتراض القلب واللسان على الله. قال أيوب عليه السلام:

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ۖ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ ۖ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾^{٤٦}

سَمَى الضر، وأثنى على رحمة ربه. لم يتصنع عدم الألم، ولم يفقد أدب العبودية.

حين تمرض، لا تطلب من نفسك بطولة زائفة. قل الحقيقة لله، وخذ العلاج، واطلب العون، واسأل الله العافية، ولا تجعل تأخرها اتهاماً لصدق دعائك أو قيمة إيمانك.

تداووا عباد الله

جاء في الخبر:

«قَالَتِ الْأَعْرَابُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا نَتَدَاوَى قَالَ " نَعَمْ يَا عِبَادَ اللَّهِ تَدَاوُوا فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلَّا وَضَعَ لَهُ شِفَاءً أَوْ قَالَ دَوَاءً إِلَّا دَاءً وَاحِدًا " . قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُوَ قَالَ " الْهَرَمُ " .»^{٤٧}

التداوي سبب لا يناقض الاعتماد على الله. ويختلف حكمه بحسب الحاجة والنفع والضرر؛ فلا تتحمل عبادة عامة مريضاً على علاج بعينه أو على تركه.

اختيار طبيب مؤهل، وفهم ما يشرحه، وسؤاله عما يقلقك، أمور تعين على قرار أهدأ. وقد تحتاج إلى رأي آخر، وقد يكفيك ما اتضح من المشورة؛ يقدّر ذلك أهل الاختصاص بحسب الحالة. ليس مطلوباً من المريض أن يعرف ما لا يعرفه الطبيب نفسه.

كما لا يجوز ترك العلاج الضروري بسبب دعوى غير منضبطة، لا يجوز تعليق القلب بالطبيب حتى ينهار إذا قال: لا أعلم. قول الطبيب «لا أعلم» أمانة، ووجود حد للعلم البشري يذكرك برب لا يخفى عليه شيء.

٤٧. جامع الترمذي، أبواب الطب، باب ما جاء في الدواء والحث عليه، رقم ٢٠٣٨، عن أسامة بن شريك رضي الله عنه. قال الترمذي: حسن صحيح.

خذ العلاج وفق الإرشاد الطبي الذي يخص حالتك، واسأل الله
العافية. تستطيع أن تدعو وأن تتداوى، وأن تطمئن إلى
أمانة الطبيب من غير أن تعتقد أن الشفاء في يده
استقلاً.

الرقية والاسترقاء

جاء في الخبر:

«كُنَّا نَرْقِي فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ تَرَى فِي ذَلِكَ فَقَالَ "اعْرِضُوا عَلَيَّ رُقَاكُمْ لَا بَأْسَ بِالرُّقَى مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ شِرْكٌ".^{٤٨}

وفي الخبر الآخر:

«قَالَ لَا رُقْيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ. فَذَكَرْتُهُ لِسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ فَقَالَ حَدَّثَنَا ابْنُ عَبَّاسٍ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "عُرِضَتْ عَلَى الْأُمَمِ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ وَالنَّبِيُّانُ يَمُرُّونَ مَعَهُمُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، حَتَّى رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ، قُلْتُ مَا هَذَا أَمْتِي هَذِهِ قَيْلٌ هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ. قِيلَ انْظُرْ إِلَى الْأَفُقِ. فَإِذَا سَوَادٌ يَمْلَأُ الْأَفُقَ، ثُمَّ قِيلَ لِي انْظُرْ هَاهُنَا وَهَاهُنَا فِي آفَاقِ السَّمَاءِ فَإِذَا سَوَادٌ قَدْ مَلَأَ الْأَفُقَ قَيْلٌ هَذِهِ أُمَّتُكَ وَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ هَؤُلَاءِ سَبْعُونَ أَلْفًا بِرَغَيْرِ حِسَابٍ، ثُمَّ دَخَلَ وَلَمْ يَبَيِّنْ لَهُمْ فَأَفَاضَ الْقَوْمُ وَقَالُوا نَحْنُ الَّذِينَ آمَنَّا بِاللَّهِ، وَاتَّبَعْنَا رَسُولَهُ، فَنَحْنُ هُمْ أَوْ أَوْلَادُنَا الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الْإِسْلَامِ فَإِنَّا وُلِدْنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ. فَبَلَغَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

٤٨. صحيح مسلم، كتاب السلام، باب لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك، رقم ٢٢٠٠، عن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه.

فَخَرَجَ فَقَالَ هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَلَا
يَكْتُمُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ". فَقَالَ عُكَّاشَةُ بْنُ مُحْصَنٍ
أَمِنْهُمْ أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ "نَعَمْ". فَقَامَ آخَرُ فَقَالَ أَمِنْهُمْ
أَنَا قَالَ "سَبَقَكَ عُكَّاشَةُ".^{٤٩}

الرقية المشروعة جائزة، والاسترقاء طلبها من غيرك. يتحدث
الخبير الثاني عن فضل مخصوص، فلا يجعل ذريعة للحكم على
باطن مريض طلب الرقية، ولا لمنعه مما أباحه الله. ولا يتولى
الراقي التشخيص الطبي، ولا يملك علم الغيب.

يختلط الباب اليوم بمبالغات واستغلال. ليس كل ألم عيناً،
ولا كل تأخر سحراً، ولا يملك الراقي علم الغيب. اقرأ على نفسك
بما ثبت، واطلب من صالح أن يدعو لك إن احتجت، وراجع
الطبيب إذا كان العرض طبياً، واحذر من يبتز المال أو ينتهك
الخصوصية.

التوكل يجمع بين سلامة العقيدة وسلامة السبب. لا تفتح
باب الشرك طلباً للشفاء، ولا تحرم نفسك سبباً أباحه الله.
وإذا ساعدت مريضاً، فاحفظ له طمأنينته وكرامته. لا تزد
مخاوفه بتفسيرات غيبية لكل عرض، ولا تجعل استمرار
ألمه اتهاماً لتوكله. أعنه على السؤال عما يحتاج، وعلى الوصول
إلى من ينفعه، وشاركه الدعاء من غير وعد بشفاء تملكه
أنت.

٤٩. صحيح البخاري، كتاب الطب، باب من اكتوى أو كوى غيره وفضل من لم يكتو، رقم ٥٧٠٥. في
صدرة قول عمران بن حصين، ثم يذكر عامر عرضه على سعيد بن جبير الذي يروي حديث ابن
عباس رضي الله عنهم. الحُمة: سم ذوات السموم.

الطاعون والاحتراز

جاء في الخبر:

«أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - خَرَجَ إِلَى الشَّامِ حَتَّى إِذَا كَانَ بِسَرِغَ لَقِيَهُ أُمْرَاءُ الْأَجْنَادِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ وَأَصْحَابُهُ، فَأَخْبَرُوهُ أَنَّ الْوَبَاءَ قَدْ وَقَعَ بِأَرْضِ الشَّامِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فَقَالَ عُمَرُ ادْعُ إِلَيَّ الْمُهَاجِرِينَ الْأُولَى. فَدَعَاهُمْ فَاسْتَشَارَهُمْ وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ الْوَبَاءَ قَدْ وَقَعَ بِالشَّامِ فَاخْتَلَفُوا. فَقَالَ بَعْضُهُمْ قَدْ خَرَجْتَ لِأَمْرٍ، وَلَا نَرَى أَنْ تَرْجِعَ عَنْهُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ مَعَكَ بَقِيَّةُ النَّاسِ وَأَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا نَرَى أَنْ تَقْدِمَهُمْ عَلَى هَذَا الْوَبَاءِ. فَقَالَ ارْتَفِعُوا عَنِّي. ثُمَّ قَالَ ادْعُوا إِلَيَّ الْأَنْصَارَ. فَدَعَوْتُهُمْ فَاسْتَشَارَهُمْ، فَسَلَكُوا سَبِيلَ الْمُهَاجِرِينَ، وَاخْتَلَفُوا كَاخْتِلَافِهِمْ، فَقَالَ ارْتَفِعُوا عَنِّي. ثُمَّ قَالَ ادْعُ إِلَيَّ مَنْ كَانَ هَاهُنَا مِنْ مَشْرِيقِ خِزْيَشٍ مِنْ مُهَاجِرَةِ الْفَتْحِ. فَدَعَوْتُهُمْ، فَلَمْ يَخْتَلِفْ مِنْهُمْ عَلَيْهِ رَجُلَانِ، فَقَالُوا نَرَى أَنْ تَرْجِعَ بِالنَّاسِ، وَلَا تَقْدِمَهُمْ عَلَى هَذَا الْوَبَاءِ، فَنَادَى عُمَرُ فِي النَّاسِ، إِنَّي مُصَبِّحٌ عَلَى ظَهْرٍ، فَأُصْبِحُوا عَلَيْهِ. قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ أَفِيرَارًا مِنْ قَدَرِ اللَّهِ فَقَالَ عُمَرُ لَوْ غَيَّرْتُكَ قَالَهَا يَا أَبَا عُبَيْدَةَ، نَعَمْ نَفِيرٌ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ إِلَى قَدَرِ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ إِبِلٌ هَبَطَتْ وَادِيًا لَهُ عُذُوتَانِ، إِحْدَاهُمَا خَصْبَةٌ، وَالْأُخْرَى جَذْبَةٌ،

أَلَيْسَ إِنَّ رَعَيْتَ الْخَصْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدْرِ اللَّهِ، وَإِنْ رَعَيْتَ
الْجَذْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدْرِ اللَّهِ قَالَ فَجَاءَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ،
وَكَانَ مُتَغَيِّبًا فِي بَعْضِ حَاجَتِهِ فَقَالَ إِنَّ عِنْدِي فِي هَذَا
عِلْمًا سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ " إِذَا سَمِعْتُمْ
بِهِ بِأَرْضٍ فَلَا تَقْدُمُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا
فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ ". قَالَ فَحَمِدَ اللَّهُ عَمْرُثُمَّ أَنْصَرَفَ.^{٥٠}

في الخبر مشاورة ثم عمل بالعلم حين بلغ. الأخذ بالوقاية لا
يخرج من قدر الله؛ والوقاية نفسها سبب من أسبابه.

الاحتراز الصحي لا يناقض القدر. تقدير الوسائل الوقائية
المعاصرة يرجع فيه إلى أهل الاختصاص بحسب المرض والحال،
ولا يجعل تطبيق واحد صالحاً لكل وباء أو لكل شخص. الذي
خلق المرض خلق في الكون سنناً، وأمرنا ألا نلقي بأنفسنا إلى
التهلكة.

وفي الوقت نفسه لا يجوز أن يصير الخوف من العدوى قسوة
على المريض أو سخرية منه. نتخذ الوقاية ونحفظ الكرامة. ولا
نجزم أن كل من أصيب بقصر، أو أن كل من سلم كان أكمل توكلاً.

تعلمنا سنة الطاعون أن القرار الجماعي قد يقييد رغبة الفرد
لمصلحة عامة. ومن التوكل أن تلتزم السبب الذي يحفظ الناس،
ثم تسأل الله العافية.

٥٠. صحيح البخاري، كتاب الطب، باب ما يذكر في الطاعون، رقم ٥٧٢٩، عن ابن عباس رضي الله
عنهما. سرغ: موضع على طريق الشام؛ والعدوتان: جانبا الوادي.

حين لا ينجح العلاج

ي بذل المريض، وي بحث، ويدعو، ثم قد لا ينجح العلاج. عندها يتسلل سؤال قاس: ماذا بقي؟ يبقى الله، وتبقى العبودية، وتبقى أسباب أخرى إن وجدت، ويبقى حق الجسد في الرحمة حتى حين لا نملك شفاءه.

ليس معنى التوكل أن نستمر في علاج مؤذٍ بلا تقدير لأن التوقف يبدو هزيمة. قد يقرر أهل الاختصاص أن المقصود صار تسكين الألم أو حفظ جودة الحياة. هذه قرارات دقيقة تحتاج علمًا ومشاورة، ولا يجوز أن تصنعها عبارة عامة.

ولا يجوز أن نبيع للمريض وعودًا كاذبة باسم اليقيني. ندعو بالشفاء، ونرجو قدرة الله، لكننا لا نضمن ما لم يضمنه الوحي. الإيمان لا يحتاج كذبة كي يقوى.

إذا لم يأت الشفاء الذي طلبته، فلا تظن أن الدعاء ضاع. أنت عبد سأل رباً كريماً، وربك يقدر بحكمة. استمر فيما ينفعك، واترك له ما لا تبلغه يدك.

العافية فضل لا استحقاق

العافية نعمة نسأل الله دوامها، وليست دليل تفوق على المبتلى. قد يفعل إنسان كل أسباب الوقاية ثم يمرض، ويهمل آخر ثم يسلم مدة. الأسباب مؤثرة بإذن الله، لكنّها لا تمنحنا حقاً على القدر.

من شكر العافية ألا تعيّر مريضاً، وأن تعينه، وأن تستعمل صحتك في الطاعة. ومن شكرها أن تحفظها بالأسباب المعقولة من غير وسواس. ومن صدق التوكل أن تسأل الله العفو والعافية، كما جاءت الأدعية النبوية.

الخوف المفرط من المرض قد يسرق العافية الحاضرة. يفحص الإنسان جسده كل ساعة، ويقرأ كل عرض، ويطلب تطميناً لا ينتهي. العلاج هنا قد يحتاج تنظيماً نفسيّاً أو طبياً، مع ذكر الله والدعاء؛ ولا عيب في طلب المساعدة المتخصصة.

عش نعمة اليوم ولا تدّع ضمان الغد. إن بقيت العافية حمدت، وإن جاء الابتلاء استعنت، وفي الحالي أن ت عبد محفوظ بعلم الله.

وقفة الباب الثامن | المرض حين يجتمع الطب والافاتقار

قد يحتاج المريض إلى من يسمعه أكثر من حاجته إلى تفسير لما وقع له. لا نعلم الحكمة الخاصة في مرض شخص بعينه، ولا يكون استمرار ألمه دليلاً على نقص توكله. نرجو له الشفاء ونساعده في الممكن.

في مثال تمثيلي، ترافق ابنة والدتها إلى موعد طبي. تعد معها الأسيئة، وتكتب تعليمات العلاج كما فهمتها ثم تتأكد منها، وتترك لها مساحة لتعبر عما يخيفها. لا تتحدث باسمها في كل شيء، ولا تعدها بنتيجة لا تملكها. هذا الحضور سبب رحمة، ومعه الدعاء والرجاء.

وقد يحتاج القارئ بالرعاية نفسه إلى راحة ومساعدة. تقاسم المسؤولية لا ينقص المحبة، والاعتراف بالاعتب لا يناقض الصبر. من الحكمة أن يعرف كل واحد ما يستطيع وما يحتاج فيه إلى غيره.

يبقى القرار العلاجي مع أهل الاختصاص بحسب الحالة. هذا الكتاب يعين على فهم العمل القلبي، ولا يحدد علاجاً أو يقرر وقف دواء. التوكل يصحب الرعاية ويعين على طلبها.

تطبيق الباب الثامن | ملف المرض الهادئ

إذا واجهت مرضاً أو فحصاً مهماً، اصنع ملفاً واحداً بدلاً من نقل مشكلات بين المصادر. ضع فيه التشخيصات، الأدوية، الأسئلة، المواعيد. التنبؤ يخفض إعادة التفكير ويجعل الاستشارة أدق.

اختر مصدرًا طبيًا أو طبيين موثوقين بدلاً من البحث المفتوح. اكتب ما لم تفهمه واسأل طبيبك. الإنترنت قد يعطي معلومة لكنه لا يعرف تاريخك كله. اتوكل هنا أن تحسن سؤال المختص ثم تقبل حدود العلم.

اجعل للذكر والدعاء مكاناً ثابتاً لا مرتباً بذروة الخوف فقط. اقرأ أذكارك، وارق نفسك بالمشروع، واسأل الشفاء، ثم خذ دواءك. بهذا لا يتنافس القلب والجسد على العلاج.

وحدد من يساعدك. مريض واحد قد يحتاج شخصاً يتابع المواعيد وآخر يهتم بالأطفال أو العمل. قبول المساعدة ليس ضعفاً. هو سبب من الأسباب التي خلقها الله في الناس.

الباب التاسع: البيوت والعلاقات

توكل الوالدين لا إهمالهما

يحمل الوالدان خوفاً لا يعرفه غيّرهما. يراقبان نفس طفل صغير، ثم دراسته وأصحابه ومستقبله. وقد يتحول الحب إلى محاولة سيطرة كاملة، مع أن التربية نفسها تعلمهما كل يوم أن القلوب والأقدار ليست بأيديهما.

التوكل لا يعني أن يتركا المتابعة. يطعمان، ويعالجان، ويضعان حدوداً، ويختاران البيئية ما استطاعا. لكنه يمنعهما من ادعاء أن حسن التربية يضمن ولداً بلا ابتلاء، أو أن خطأ الولد شهادة نهائية على فشلهما.

قال الله لنبيه ﷺ:

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ
بِالْمُهْتَدِينَ﴾^{٥١}

إذا كان الرسول ﷺ لا يملك هداية التوفيق لمن أحب، فكيف يحمل والد قلب ولده كأنه بيده؟
أحسن ما عليك، واعتذر إذا أخطأت، وأكثر من الدعاء، ثم اترك للولد مساحة مسؤوليته ولله أمر قلبه.

تربية تعمل ولا تملك الهداية

التربية بذل متكرر، لا موقف واحد حاسم. قد تقول الكلمة اليوم ولا يظهر أثرها إلا بعد سنين. وقد ترى من ولدك ما يحزنك رغم صدقك. التوكل يحفظك من استعجال الثمرة، ولا يعفيك من مراجعة الأسلوب.

علم بالقدوة قبل الأمر، واضبط البيوت من غير إنزال، واسمع السؤال قبل أن تحاكمه. واستعن بمن يفهم المرحلة إذا احتجت. هذه كلها أسباب، ثم قل: يا مقلب القلوب، ثبت قلوبنا على دينك.

لا تستخدم القدر لتبرير العنف، ولا تستخدم المسؤولية لتدعي التحكم. هناك فرق بين أن تكون سبباً في الهداية، وأن تكون خالقاً لها. الأول شرف وتكليف، والثاني ليس لأحد. ربما كانت عبادة الوالد اليوم أن يترك باباً أغلقه الأب: حديث هادي، أو اعتذار، أو طلب علاج. افعل الخطوة ولا تشترط أن ترى أثرها في الجلسة نفسها.

الزواج بين الاستخارة والمشاورة

الزواج قرار يحتاج تحرياً ومشاورة واستخارة؛ ولا تملك وسيلة بشرية أن تمنح ضماناً كاملاً للمستقبل. وقد جاء في تعليم الاستخارة:

«كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعَلِّمُنَا الْإِسْتِخَارَةَ فِي الْأُمُورِ كَمَا يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ يَقُولُ " إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالْأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكَعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الْفَرِيضَةِ ثُمَّ لِيَقُلِ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أُمْرِي - أَوْ قَالَ عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ - فَأَقْدِرْهُ لِي وَيَسِّرْهُ لِي ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ، وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أُمْرِي - أَوْ قَالَ فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ - فَاصْرِفْهُ عَنِّي وَاصْرِفْنِي عَنْهُ، وَاقْدِرْ لِي الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ ثُمَّ أَرْضِنِي بِهِ - قَالَ - وَيُسَمِّي حَاجَتَهُ. »^{٥٢}

ليس في هذا الحديث اشتراط رؤيا بعد الدعاء. اجمع ما يلزم من معلومات عن الدين والخلق والحقوق، واستشر من يصدقك، واسأل الله أن يقدرك الخير.

٥٢. صحيح البخاري، كتاب التهجد، باب ما جاء في التطوع مثنى مثنى، رقم ١١٦٦، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

لا تجعل الاستخارة بديلاً عن سؤال واضح، ولا تجعل التحليل الطويل بديلاً عن الاستخارة. وإذا تم الزواج، فلا تستخدم عبارة «استخرت» لإسكات كل مراجعة؛ قد يقع ظلم يحتاج إصلاحاً أو قراراً جديداً.

توكل قبل العقد بالتحري، وبعده بأداء الحق، وعند الخلاف بالعدل. ليس التوكل لحظة اختياري فقط، بل صحبة لله في الطريق كله.

حين يتعلق القلب بشخص

يحب الإنسان إنساناً، ويرجو قربه، ويستأنس به. والمحبة المباحة نعمة، لكن القلب قد يحمل المخلوق فوق طاقته: يريد منه أمناً دائماً، وفهماً كاملاً، وحضوراً لا ينقطع. ثم يغضب لأنه لم يجد في بشر ما لا يكون إلا لله.

التوكل لا يطفئ الحب؛ ينقيه. يعينك على الإحسان إلى من تحب مع حفظ طاعة الله وحقوق نفسك والآخرين. تطلب حَقك وتقبل حدود البشر، وتعلم أن قلبك لا يصلح أن يكون رهيبة رسالة أو مكالمة.

إذا تعلق القلب تعلقاً يؤذي الدين أو الكرامة، فالعلاج ليس موعظة واحدة. قلل أسباب التعلق المحرم، واملأ الوقت بما ينفع، واستعن بمن تثق، وارجع إلى الله كلما عاد الخاطر. التوكل عمل يتجدد، لا قرار شعوري لحظة واحدة. أحب الناس لله وبالله، واشكر وجودهم، ولا تنس أنهم نعمة تتغير. الحي الذي لا يموت هو مأوى القلب الأخير.

الحدود والحقوق

ليس من التوكل أن تترك حقك دائماً خوفاً من النزاع، ولا أن تتنازل عن حقوق من تعول ثم تقول: الله يعوضنا. العفو فضل في موضعه، لكن الحقوق لها أصحاب، وبعضها لا تملك إسقاطه.

ضرع حدوداً واضحة في العمل والأسرة، ووثق العقود، واطلب الوساطة أو القضاء إذا لزم. هذه أسباب لحفظ العدل. ولا تجعل الخصومة تبتلع قلبك؛ اطلب الحق من غير افتراء، واقبل الحكم العادل، وفوض ما لا تستطيع إلى الله.

وقد يحتاج التوكل شجاعة الخروج من علاقة مؤذية مع اتباع الطرق الشرعية والقانونية الآمنة. لا يصح أن يؤمر المظلوم بالصبر المجرد وهو في خطر. دله على سبب، واحفظ سره، ولا تحمله نتيجة ظلم غيره.

الاعتماد على الله لا يغيبك. هو الذي أمرك بالعدل ونهى عن الضرر، ومن طاعته أن تحفظ النفس والحق بما أباح.

أن نترك الن تائج لله

تدعو لمن تحب، وتنصحه، وترافقه إلى الطبيب، وتبذل في صلحه، ثم تصل إلى حد لا تستطيع تجاوزه. هنا يؤولم القلب اعترافه بالعجز، لكنه اعتراف يفتح باب العبودية.

ليس ترك الن تائج لله تركًا للمحبة. هو أن تكف عن الدوران في مساحة ليست لك، وأن تعود إلى مسؤوليتك. قد يكون واجبك أن تبقى قريباً، أو أن تباعدت لحفظ نفسك، أو أن تطلب مساعدة. الحكم يخلف، لكن الأصل واحد: لا تملك قلب الآخر ولا قدره.

ادع له من غير أن تجعل الدعاء صفقة: يا رب، فعلت فافعل لي. أنت تسأل فضل الله، ولا تمن عليه بعملك. وإن تأخر ما تريد، استمر في البر الممكن ولا تظلم نفسك باسم الوفاء. هناك راحة مؤلمة في قولك: يا رب، هذا عبدك وأنا عبدك، وقد فعلت ما أقدر عليه، وأنت أرحم وأعلم.

وقفة الباب التاسع | الحب والمسؤولية دون وهم السيطرة

الفرق بين المحبة والسيطرة يظهر في فعل صغير: هل تسمع جواب من تحب، أم تعيد السؤال حتى يقول ما تريده؟ قد يكون واجبك النصح أو الحماية أو وضع حد، لكنك تحتاج أن تعرف متى يؤدي التكرار غرضه ومتى يتحول إلى ضغط.

في مثال تمثيلي، يختلف والد وابنه البالغ في اختياري تخصص. يعرض الوالد ما يعرف من التكاليف والفرص، ويسمع رغبة ابنه، ثم يستشيران من يفهم المجال. لا يضمن أحدهما النتيجة، لكنهما يستطيان حماية الحوار من الإهانة ومن وعود لا يملكانها.

وفي كل علاقة يبقى للحقوق وزنهما. لا تسقط حقوق غريك لتشري هدوءاً مؤقتاً، ولا تجعل الاختلاف إنزاً بالقسوة. وقد يكون التصحيح اعتذاراً منك قبل أن ترى اعتذار الآخر. إذا وقع أذى فاطلب المساعدة الآمنة المناسبة. أما عند اختلاف مباح، فتعلم أن تقبل مساحة الاختياري التي لا تخصك. يبقى القلب محباً وداعياً من غير أن يحمل ما ليس إليه.

تطبيقات الباب التاسع | علاقة بلاسيطرة

اختر شخصًا تحبه واسأل: ما حقّي وواجبي معه، وما الشيء الذي أحاول التحكم فيه بلا حق؟ قد تكتشف أنك تكرر النصيحة بعد وضوحها، أو تطلب تطمينًا لا ينتهي، أو تتحمل مسؤولية لم يكلفك الله بها.

حدد سلوكًا واحدًا يحسن العلاقة من جانبك: اعتذار، موعد حوار، حد واضح، أو مساعدة. افعله من غير أن تشترط استجابة فورية. هذه النقطة هي قلب التوكل في العلاقات: صدق الفعل من جانبك وترك قلب الآخر لله.

إذا كانت العلاقة مؤذية، لا تجعل فكرة الوفاء تمنع طلب الحماية. استشر من يملك علمًا وخبرة، ووثق ما يلزم، واتخذ السبب الآمن. التوكل لا يطلب منك البقاء تحت ضرر يمكن دفعه.

وإذا كانت العلاقة طيبة، مارس الشكر بدل القلق من فقدانها. عبر عن الامتنان، وأد الحقوق، واترك مساحة. النعمة تحسن بالشكر أكثر مما تحفظ بالقبضة.

الباب العاشر: القرار والقلق

أحرص على ما ينفعك

قال رسول الله ﷺ:

«الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلِّ خَيْرٍ أَحْرَصُ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَأَسْتَعِينُ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَتْ كَذَا وَكَذَا. وَلَكِنْ قُلْ قَدَرَهُ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّرِّ طَانٌ».^{٥٣}

يجمع الحديث الحرص على النافع والاستعانة بالله، ثم يوجه القلب بعد وقوع ما يكره. ليست الاستعانة انتظاراً بلا عمل، ولا العمل ضماناً للننتيجة.

النافع ليس ما يلمع فقط. قد ينفعك نوم من تظم أكثر من مشروع جديد، وترك خصومة أكثر من كسب جولة، وتعلم أصل مهارة أكثر من جمع الشهادات. يحتاج الحرص إلى علم بالأولويات، وإلى صدق يمنعك من تسمية الهوى مصلحة.

اختر نفعاً واحداً تستطيع العمل له اليوم. لا تحمل قايمة طويلة ثم تعجز عنها كلها. ضع سبباً واضحاً، واطلب عون الله عليه. وإذا ظهرت لك مصلحة أرجح، فغيّر الطريق من غير خجل.

٥٣. صحيح مسلم، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله، رقم ٢٦٦٤، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

التوكل لا يخفف سقوف الهمّة؛ يحرر الهمّة من عبادة النّتيّة.
تحرص لأن الله يحب منك العمل، لأنك ضمنّت ما بعده.

استعن بالله ولا تعجز

العجز قد يكون حقيقة يعذر بها الإنسان، وقد يكون عادة ينسحب بها قبل المحاولة. الحديث ينهى عن الثاني: لا تترك الممكن لأن الكامل متعذر، ولا تجعل تجاربك القديمة حكماً أبدياً على قدرتك.

الاستعانة تبدأ من القلب وتظهر في سبب. من استعان بالله على ترك ذنب، أغلق طريقه. ومن استعان به على طلب علم، نظم وقته وسأل معلمه. ومن استعان به في علاج قلق، قبل أن يراجع مختصاً إذا احتاج. ليست الأسباب ناقصاً في الاستعانة، بل قد تكون جوابها.

ولا تقس نفسك بالصحيح إذا كنت مريضاً، ولا بالغني إذا كنت قليل المولد. «لا تعجز» لا تعني أن تكلف نفسك ما لا تطيق؛ تعني ألا تترك استطاعتك مهمة. قال الله تعالى:

{فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ ۚ وَمَنْ يُوقْ شَحْنَ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} ٥٤

اطلب من الله قوة الخطوة التالية، لا قوة الطريق كله دفعة واحدة. كثير من العجز يسقط حين يصغر السؤال.

ما بعد الاستخارة

في دعاء الاستخارة المتقدم يقرر العبد بقصور علمه وقدرته، ويسأل الله الخير. لذلك لا يتعامل مع الدعاء بوصفه وسيلة ليعرف الغيب، ولا يجعل ان تظار رؤيا شرطًا لكل قرار.

بعد الاستخارة تواصل النظر في الأسباب. إذا تسر الأمر ومضيت، فاسأل الله البركة. وإذا ظهرت موانع معتبرة، فلا تعاندها بحجة أنك استخرت. وإذا بقي الأمر ممكنًا من جهتين، اختر بما ترجح لديك وتوكل.

قد تمضي في أمر ثم يقع فيه تعب. لا يلزم من التعب أن الاستخارة «لم تنجح». كثير من الخير يحتاج صبرًا، وقد يكون الخير في تعلم أو تكفير أو صرف ضرر أكبر لا تراه. ولا نجزم بحكمة خاصة لم يخبرنا الله بها.

الاستخارة لا تنقل إليك علم الغيب؛ تنقل قلبك من ادعائه إلى سؤال العليم. وبعد الدعاء، عش مسؤوليتك بهدوء.

القلق الذي يعيد السؤال

هناك فرق بين مراجعة نافعة وبين قلق يعيد السؤال بنفسه ولا يضيء معلومة. الأول يصح القرار، والثاني يطلب استحالة: يقيئاً كاملاً بمسئق بل لم يقع. وكل إجابة تطمئنه دقائق، ثم يفتح احتمالاً جديداً.

ومما يعين على تنظيم القرار وضع حدود عملية للبحث. حدد ما تحتاج معرفته، ومن تسأل، وموعد القرار، ثم توقف عن البحث ما لم تظهر حقيقة جديدة. قد يبقى القلق؛ لا تجعله صاحب السلطة.

وإذا بلغ القلق حدًا يعطل النوم والعمل والعبادة، فقد يحتاج إلى علاج نفسي متخصص. طاب العلاج ليس نقصاً في الإيمان، كما أن علاج السكري ليس كذلك. يجتمع الذكر والدعاء مع الوسائل العلاجية المعتبرة.

حين يعود السؤال بعد حسمه، قل لنفسك: لا معلومة جديدة هنا. لقد بذلت، وأمرني إلى الله. ثم انتقل إلى عمل حاضر، ولو كان صغيراً.

الفرق بين الحذر والوسواس

قد يراجع الإنسان أمراً لأن معلومة مهمة ناقصة، وقد يجد نفسه يعيد الفحص نفسه مع ضيق شديد وإن لم يظهر جديد. هذا الوصف وحده لا يشرح اضطراباً؛ لكن استمرار الأفكار أو الأفعال القهرية بما يعطل الحياة يستحق مساعدة مختص.

للسواس القهري علاج يختاره المختص بحسب الحالة. لا يستبدل به المصاب موعظة أو تمريناً في هذا الكتاب، ولا يغير الأهل طريقة دعمه على نحو قايٍس من تلقاء أنفسهم. يعينونه على الوصول إلى الرعاية واتباع الخطة المتفق عليها.

التوكل هنا ليس أن تقول للمبتلى «اترك التفكير». هو أن تساعد على قبول قدر من عدم اليقين، وأن يعمل بالحكم الظاهر، وأن يفوض ما لا يستطيع ضمانه. وقد جاءت الشريرة برفع الحرج وعدم الالتفات إلى الشكوك الطارئة بعد اليقين.

في القرارات المعتادة راجع بقدر الحاجة، وأعد المراجعة إذا ظهر سبب معتبر. أما المتابعة الطبية وما يقرره المختص فلهما تقديريهما الخاص. الله لم يكلفك علم الغيب.

سلام القلب بعد بذل الوسع

بعد وقوع ما تكره قد يستغرقك تخيل قرار آخر كان سيمنع الألم. يوجه الحديث المتقدم في فصل الحرص على النافع إلى الإيمان بالقدر، مع بقاء التعلم والتصحیح. لا تستطيع إعادة الزمن، لكن تستطيع إصلاح ما بقي في يدك.

النهى ليس عن التعلم من الخطأ. يجوز أن تقول: كان الإجراء ناقصًا وسأصححه. المنهى عنه اعتراض ياتهم القلب، ويتوهم أن الماضي يمكن أن يعود، أو أن القدر خرج عن مشيئة الله.

راجع بقدر ما ينتج قرارًا جديدًا، ثم أغلق الملف. اعتذر إن ظلمت، وأصلح إن استطعت، وتب إن عصيت. وبعد ذلك لا تجعل جلد الذات توبة إضافية لم يأمرك الله بها.

سلام القلب ليس نسيان التجربة. هو أن تضعها في موضعها: حدثت بعلم الله، ولي فيها عبادة الآن، ولن أغيرها بإعادة عيشها.

وقفة الباب العاشر | قرار ي كفيه العلم الممكن

لا تقاس جودة القرار بالنتيجة وحدها. قد تنظر في المعلومات المتاحة بإنصاف ثم يحدث ما لم تعلمه، وقد ينجح اختصار متسرع مصادفة فلا يصح التسرع فضيلة. المراجعة العادلة تسأل عما كان في وسعك يوم اخترت.

في مثال تمثيلي، يختار طالب برنامج تدريبي بعد سؤال خريجه ومراجعة محتواه. تتغير الجهة المشرفة في ضعف البرنامج. عليه أن يبحث عن حقه والبدائل، لكن ليس من العدل أن يحاكم نفسه بمعلومة لم تكن متاحة حين دفع الرسوم.

اكتب ما ظهر بعد التنفيذ: معلومة جديدة، أو خطأ أغفلاته، أو ظرفاً خارج قدرتك. لكل واحد استجابة تناسبه. ثم حدد موعداً للمراجعة بدل إعادة السؤال كلما اضطربت.

هذه وسيلة لتنظيم القرارات اليومية، وليست علاجاً ذاتياً للوسواس القهري. إذا صار التكرار قهرياً معطلاً للحياة فاستعن بمختص، وخذ من التذكير الإيماني ما يعينك دون أن تحوِّله إلى اتهام للنفس.

تطبيق الباب العاشر | قاعدة التوقف

للقرار القلق مشكلة متكررة: لا يعرف متى يتوقف. ضع قاعدة بسيطة: لا أعود إلى السؤال إلا إذا ظهرت معلومة جديدة قابلة لتغيير الحكم. الشعور وحده ليس معلومة جديدة. حين يأتي الدافع لإعادة الفحص، سمّه باسمه: «هذا قلق يطلب يقيناً إضافياً». ثم انتقل إلى عمل حاضر. قد يبقى الضيق؛ والمقصود هنا تنظيم القرار المعتاد، مع طلب المساعدة المتخصصة إذا أصبح التكرار معطلاً. إذا أخطأت فعلاً، لا تستخدم القاعدة للهروب. المعلومة الجديدة تشمل ظهور خطأ أو ضرر أو حق ضائع. عندها ارجع وعدل. التوكل ليس تصلباً، بل قدرة على الحسم والمراجعة كل في وقتها. وإذا كان التكرار قهرياً ويعطل حياتك، استعن بمختص. المعالجة المتخصصة لا تناقض الذكر والدعاء، بل قد تكون هي السبب الذي يعيد للحياة اتزانها.

الباب الحادي عشر: مراتب التوكل وآفاته

توكل في الطاعة

يظن بعضنا أن التوكل للرزق والمصائب، وينسى أنه أحوج إليه في الصلاة والاستقامة. قد تعرف فضل العمل، لكن النفس تثقل والشيطان يصد. هنا تقول: إياك نستعين، وتقوم.

لا تعتمد على نشاطك الحالي. كم من إنسان بدأ بقوة ثم انقطع لأنه رأى البدايات ملكه. اسأل الله الثبات، وخذ سبب الدوام: عمل قليل مستمر، وصحبة سالحة، وبيئة تعين، ومحاسبة بلا قسوة.

ومن التوكل ألا تؤجل الطاعة حتى تصبح النفس مثالية. صل في وقتك ولو لم تجد الخشوع الكامل، واقرأ ما تيسر، ورد الحق. المشاعر تتربى بالفعل كما يتربى الفعل بها.

إذا فتح الله لك باب خير، فلا تقل: أنا هكذا. قل: هذا من فضل ربي، وأسأله ألا يكلني إلى نفسي طرفة عين.

توكل في ترك المعصية

ترك المعصية يحتاج توكلًا؛ لأن النفس تخاف ما تفقده: متعة، أو مالًا، أو شخصًا، أو قبولًا. وقد يعرف الإنسان الحكم ثم يقول: لا أستطيع. وقد تكون أمامه عوائق تحتاج إلى مساعدة وتدرج؛ فلا نحكم على صدقه من عبارة العجز وحدها.

توكل على الله أن يفي بك ما تركت له، لكن لا تشترط نوع العوض. أغلق الباب، واحذف الوسيلة، ورد المال، وابتنع عن الصحبة التي تعيذك. لا تدع بالنجاة وأنت تحفظ طريق الرجوع كاملاً.

وقد تعود فتقع. لا تجعل السقوط حجة على ترك الطريق. تب، وافهم السبب، وشدد الحراسة في موضع الضعف. التوكل ليس دعوى العصمة، بل دوام الرجوع والاستعانة.

قال الله تعالى:

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوِي عَدْلٍ مِّنْكُمْ وَأَقْرِبُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۝۞﴾

أول المخرج تقوى تختارها الآن، لا حكاية تعويض تنتظرها
قبل أن تطيع.

توكل في الدعوة والإصلاح

المصلح معرض لآفتين: اليأس إذا لم يستجب الناس، والعجب إذا استجابوا. والتوكل دواؤهما. أن تَسبب، والهداية والتوفيق من الله. فلا تترك البلاغ لأن الثمرة بطيئة، ولا تنسب الثمرة إلى براعتك.

راجع علمك وأسلوبك، واعرف وقت الصمت كما تعرف وقت الكلام. ليس كل تعليق ساحة دعوة، ولا كل مواجهة حكمة. والاستشارة هنا من الأسباب؛ فقد يخلط عليك الغضب للحق بالغضب للنفس.

إذا رُفِضت نصيحتك، لا تتحول الرحمة إلى خصومة. ابق على الحق، واحفظ للناس كراماتهم، وادع لهم. وإذا قبلوها، اشكر الله ولا تطالب منهم ديناً دائماً لصورتك.

قول شرعي عليه السلام يضر بترك:

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾^{٥٦}

الركون إلى السبب

الركون إلى السبب أن يمنحه القلب أماناً لا يملكه. يظهر ذلك حين تنسى الله عند وجوده، وتخالف أمره لتحتفظ به، وتظن أن فواته يعني انغلاق كل أبواب الخير. ولا يكفي شدة الحزن وحدها للحكم على قلب صاحبها.

ليس العلاج أن تزهد في إتقان السبب، بل أن تكثر من رؤية افتقاره. الطبيب قد يخطئ، والسوق يتغير، والصديق يغيب، والجسد يضعف. هذه ليست دعوة للتشاؤم؛ هي وصف للخلق. والكمال للخالق وحده.

إذا نجح السبب، قل الحمد لله، واشكر من كان سبباً. وإذا تعطل، لا تحتقره ولا تقدسه؛ قيّم، وتعلم، وابحث عن غيِّره. وأدّ حق الناس من غيِّره أن تنسب إليهم ما هو لله.

من علامات صحة القلب أن يستطيع استعمال السبب وتركه إذا حرمه الله. ما لا يستطيع تركه لله قد صار فيك أكبر من حجه.

ترك السبب

قد يترك الإنسان الدراسة ثم يقول: إن كان النجاح مكتوباً جاء. ويهمل العلاج ثم يسمي ذلك يقيناً. ويقتصر في النفقة ثم يطلب من أسرته أن تتوكل. هذه ليست من زلة قلب، بل تضییع واجب.

القدر يُحتج به بعد وقوع ما لا تملك، لا قبل العمل لتسويغ التقصير. وقد تقدم خبر إعداد زاد الهجرة واستئجار الدليل وادخار قوت الأهل؛ فهي أعمال تزد على جعل ترك الاستعداد هو طريق التوكل.

تختلف الأسباب في حكمها: منها واجب، ومنها مستحب، ومنها مباح، ومنها محرم. لا يقال «خذ بالأسباب» بإطلاق يبرر الحرام، ولا «اتركها» بإطلاق يعطل الواجب. اسأل عن الحكم والنفع والقدرة.

إذا اكتشفت تقصيراً، لا تغطه باسم جميل. سمّه، وتب، وأصلح. من صدق مع الله لم يحتج إلى تزيين عجزه.

دعوى الكرامة وضمان الن تاىج

من أخطر الكلام أن يعد واعظ الناس بأن من توكل حصل حتماً على المال أو الشفاء أو الزواج الذي يريد. هذا يربط العبادة بعقد لم يعقده الله، ثم يترك المبتلى بين الشك في ربه والشك في نفسه.

نعم، وعد الله المتوكل بالكفاية، ووعد المتقي بالمخرج والرزق من حيث لا يحتسب. لكن الكفاية والمخرج يجريان بعلم الله وحكمته، ولا يمانعان الابتلاء والموت وفوات بعض مطلوب الدنيا.

ولا يجوز أن يعتمد الإنسان الخطر ليختبر توكله أو يطالب كرامة. الأنبياء أخذوا بالأسباب، وسأل النبي ﷺ العافية. الخوارق ليست مقاييس الولاية، وأعظم الكرامة لزوم الاستقامة. احذر من خطاب يحول التوكل إلى تقنية للسيطرة على الكون. التوكل عكس ذلك: أن تعبد رب الكون، وتؤدي أمرك، وتسلم له الاختيار.

وقفة الباب الحادي عشر | آفات تتخفى في لباس التوكل

قد تختبي وراء لفظ التوكل رغبة في الراحة، وقد تختبي وراء الاحتياط خوف لا يعرف حدًا. لا تكشف عبارة واحدة حقيقة القلب؛ انظر إلى فعل تستطيع إصلاحه. هل ضيعت حقًا؟ هل قبلت وسيلة محرمة؟ هل امتنعت عن طلب علم تحتاج إليه؟

في مثال تمثيلي، تحفظ مؤسسة أعمالها على جهاز واحد. تتكرر التنبيهات إلى ضرورة نسخة احتياطية، فيؤجل المسؤول ذلك اعتمادًا على أن الأعطال لم تقع من قبل. ليس المطلوب ضمان استحالة العطل، بل أداء الأمانة بحسب إمكان المؤسسة وخطورة الفقد.

كذلك لا يجعل نجاح الاحتياط صاحبه أعلم بالسرائر. قد يتخذ غيره وسيلة مباحة مختلطة، أو يطلاب رقية، أو يتأخر عنه ما يرجو. اختلاف الوسائل والنتائج لا يمنحنا حق الحكم على توكله.

إذا وجدت تقصيرًا فصحه، وإذا وجدت مبالغة فراجعها، وإذا اشتبه عليك الحكم فاسأل. العمل القلبي لا يذم بآداء بلوغ حال لا تتغير، بل بصدق الرجوع كلما بان خطأ.

تطبيقات الباب الحادي عشر | اخت بار صدق التوكل

اخت بر أي دعوى توكل بسؤال سلوكي: ماذا غير هذا المعنى في فعلي؟ إذا قلت إن رزقي على الله، هل تركت حراماً؟ إذا قلت إن الشفاء بيده، هل أخذت العلاج بلا عبودية للطبيب؟ إذا قلت إن هداية ابني بيده، هل بذلت التربية من غير سيطرة؟ السلوك لا يكشف السريرة كلها، لكنه يمنح الكلمات من أن تصبح غطاءً.

ثم اخت بر الطرف المقابل: هل تركت سبباً يلزمني الأخذ به لأنني أخاف الفشل أو أتعب من الجهد؟ إن ظهرت قصير واجب الإصلاح فاستعن بالله على تداركه. أما الوسائل المباحة والاختيارات المتعددة، فليست كلها واجبة على كل أحد؛ زن حاجتك واستطاعتك واستشر فيما أشكل.

اخت بر كذلك علاقتك بالنتيجة. هل ستظل طاعة الله صحيحة عندك لو لم تحصل على ما تريده؟ هذا السؤال قد يكشف تعلقاً خفياً. ليس مطلوباً أن تتمنى الفقد، بل أن يبقَى الرب أحب وأعظم من النتيجة.

كرر الاخت بار في أبواب مختلفات، لأن الإنسان قد يكون متوكلاً في المال شديد التعلق في العلاقات، أو العكس. أعمال القلوب تحتاج مراجعة مستمرة، والتوكل ليس درجة ثابتة لا تتغير.

الباب الثاني عشر: قلب يسير بالله

التوكل والإخلاص

الإخلاص يجيب: لمن أعمل؟ والتوكل يجيب: بمن أستعين وعلى من أعتمد؟ وقد يجتمع فساد القصد وفساد الاعتقاد؛ يعمل الإنسان للناس، ثم يعتمد عليهم ليكافئوه. فإذا لم يفعلوا امتلاً مرارة.

حين يكون العمل لله، يخف سلطان التصفيق. وحين يكون الاعتقاد على الله، لا تصبح استجابة الناس شرطاً للاستمرار. هذا لا يلغي حق الشكر ولا ألم الجحود، لكنه يمنح القلب من بيع قصده.

قد تخفي عملك ثم تعتمد في باطنك على مهارتك، وقد تعلن عملاً لمصلحة صحيحة وقلبك مفتقر. العبرة ليست بالصورة وحدها. راقب نيتك، واطلب العون، ولا تزك نفسك. قل قبل العمل: اللهم لك. وقل أثناءه: اللهم بك. وقل بعده: اللهم تقبل. بهذه الكلمات يعود القصد والقوة والقبول إلى صاحبها.

التوكل والمراقبة

من علم أن الله يراه استحيًا أن يسمي التقصير توكلًا. المراقبة تكشف ما نحاول إخفاءه عن الناس: لم أترك السبب ثقة، بل كسلًا؛ لم أمض في القرار شجاعة، بل اندفاعًا؛ لم أقبل القدر رضا، بل لأنني لم أبذل أصلًا. وفي الجهة الأخرى، المراقبة تطمئن المتوكل. الله يرى قيامه حين لا يراه الناس، ويعلم خوفه الذي قاومه، ويعلم السبب الصغير الذي بذله. لا يحتاج أن يعرض كل جهاده ليصدق الخلق.

اجتماع المعنيتين يصنع أمانة هادئة: تعمل لأن الله يراك، وتعتمد عليه لأنه يراك. إذا أخطأت سارعت إلى التصحيح، وإذا ظلمك الناس لم يلزم أن تنتقم لصورتك في كل موضع. التوكل بلا مراقبة قد يصير دعوى، والمراقبة بلا استعانة قد تثقل القلب. فإذا اجتمعا، استقام السير.

التوكل واليقين

اليقين بمعرفة الله وصدق وعده يعين على التوكل؛ ثم يظهر أثر هذه المعرفة في القرار والعمل. ليس المقصود أن تعرف ما سيقع لك، بل أن تعتمد على الله وأنت لا تعرف تفاصيل الغد.

اليقين لا يعني أنك تعرف ما سيقع. أنت تتوقن بمن يقدره، لا بتفاصيله. وهذه المسافة هي موطن التوكل: غيب لا تعرفه، ورب تعرفه.

كلما طالبك قلبك بضمان المستقبل، أعطه معرفة بالله بدل وهم الضمان. قل: لا أعلم ما يأتي، لكني أعلم أن ربي عليّ حكيم.

التوكل والصبر والرضا

قد تبدأ العمل مستعياً بالله، ثم يتأخر ما رجوت فيظهر احتياجك إلى الصبر. قالت الرسل:

{وَمَا لَنَا إِلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا} وَلَنْ صَبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْنَاكُمْ وَاعْلَمُوا بِمَا نَفْعُهُمْ} ^{٥٧}

بقي الأذى واقعاً، واجتمع في مواجهته الصبر والتوكل.

والواجب عند المصيبة الصبر وترك التسخط المحرم. أما الرضا بالمصيبة نفسها فمرتبة أختلاف في وجوبها، واختار ابن باز استحبابها؛ فلا نسوي بين عدم بلوغ هذه المرتبة وبين الاعتراض على الله. وهذا غير الرضا بالله رباً وبحكمه الشرعي ^{٥٨}.

تستطيع أن تحزن لفقد، وتطلب علاجاً لمرض، وتسعى إلى دفع ظلم، مع حفظ الصبر والتسليم لله. ولا يلزم من الإيمان بالقدر الرضا بما نهى الله عنه من عدوان أو معصية؛ تؤدي واجبك في إصلاحه بحسب العلم والاستطاعة.

٥٧. إبراهيم: ١٢.

٥٨. ينظر: ابن باز، جواب «معنى حديث فمن رضي فله الرضا»، رقم ٢١٤٣٤؛ فرّق فيه بين وجوب الصبر واستحباب الرضا بالمصيبة.

حين يطول الطريق، اسأل عما يلزمك اليوم وافعل ما
تستطيع. وجدّد استعانتك، واطلب ممن يساندك عوناً مباحاً،
ولا تلزم قلبك ادعاء شعور لم يجده. له باب إلى الله في الصبر
والسؤال والرجوع، حتى وهو يتألم.

التوكل والإنابة

الإنابة رجوع القلب إلى الله. والمتوكل يحتاجها؛ فقد يضل قلبه من غير أن يترك العمل الظاهر. يكثر السبب في نسي، أو يتأخر الجواب في عترض، أو ينجح في عجب. عندها يرجع. قال شعيب عليه السلام:

«قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَأَكُم عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ»^{٥٩}

اعتماد ورجوع. لا يوجد متوكل وصل إلى حال يستغني بها عن التوبة، بل صدق توكله يجعله أسرع اعترافاً بفقره.

اجعل لك رجعة في كل يوم: بعد نجاحك قل الحمد لله، وبعد تقصيرك استغفر، وعند حيرتك اسأل، وعند الخوف الجأ. لا تنظر أزمة كبرى حتى تعرف الطريق إلى الله.

والإنابة لا تبقى شعوراً. إن رجعت من ظلم فرد الحق، وإن رجعت من كسل فابدأ، وإن رجعت من تعلق فاقطع سببه. القلوب تصدقها الجوارح.

على الله توكلنا

تتكامل معاني هذا الباب، ولا تنتهي حاجة القلب إليها. سيبقى أمامك أمر لا تملكه، وسيبقى فيك ضعف، وستفتح الحياة أبواباً لم تكن في خطتك. لكنك تعلمت أين تضع قلبك.

تؤدي السبب ولا تعبد. تسأل الناس فيما يقدرون عليه ولا تستغني بهم عن الله. تخاف ولا تجعل الخوف قايئداً. تخطط، وتستخير، وتعزم، فإذا وقع القدر تعلمت وتبت وسلمت. وحين تأتي النعمة، لا تنسبها إلى نفسك.

قل مع المؤمنين:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا
إِن كُنْتُمْ مُّسْلِمِينَ ۝ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا
فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۝ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ
الكَافِرِينَ﴾^{٦٠}

جاء جوابهم بعد أمر موسى عليه السلام بالتوكل؛ فاجتمع الاعتماد والدعاء.

وفي كل صباح، لا تطالب أن تحمل رزق العمر وهمه. خذ واجب اليوم، واستعن برب اليوم ورب الغد. وفي كل مساء، رد ما لم يكتمل إلى من لا ينام.

على الله توكلنا: لا على قوتنا، ولا على خطتنا، ولا على صلاحنا. عليه وحده، ثم نمضي.

وقفه الباب الثاني عشر | قلب يمشي ولا يحمل الكون

تتكامل أعمال القلب في الموقف الواحد: إخلاص يضببط القصد، ومراقبة تحفظ الأمانة، ويقيّن يعين على الاعتماد، وصبر عند تأخر المراد. فلا تجعل كل معنى كلمة من فصلة تحفظها ثم تعجز عن وصلها بقرارك.

في مثال تمثيلي، ينتهي متطوع من عمل نافع لم يذكر الناس اسمه فيه. يستطيع أن يشكر الله على إتمامه، ويسأل قبول عمله، ويطالب بحق واضح إن كان له حق، دون أن يجعل غياب المدح دليلاً على ضياع كل ما بذل.

وعند البلاء يبقى الفرق الذي تقدم بين الصبر الواجب والرضا بالمصيبة. لا تلزم نفسك بأن تحب الألم، ولا تجعل السعي إلى رفعه نقصاً في التسليم. اسأل عما يلزمك الآن، وابدأ من ٤.

لا تحتاج في كل موقف إلى تذكر الكتاب كله. يكفي أن تستعيد أصلًا واضحًا ثم تعمل به: تعرف مسؤوليتك، وتطالب العون، وتحفظ الحقوق، وترد ما لا تملكه إلى الله. وبذلك تنتهي لأن تقال من القراءة إلى التدريب اليومي.

تطبيقات الباب الثاني عشر | ثلاث وقفات لكل يوم

قبل أن تبدأ أمرًا مهمًا، خذ وقفة قصيرة: ما نيتي؟ ما حكمي؟ ما السبب الذي أقدر عليه؟ ثم قل: يا رب أعني. هذه الوقفة تمنعك من الدخول في العمل مستغنيًا بقوتك. وأثناء العمل خذ وقفة ثانية: هل ما زلت أحسن السبب، أم صار خوفي عليه يدفعني إلى تجاوز الحق؟ هل ظهرت معلومة تستدعي تعديلاً، أم أنا أتحرك مع القلق فقط؟ هذه المراجعة تحفظ المرونة من غير فوضى.

وبعد النتيحة خذ الوقفة الثالثة: إن كان خيّرًا فاحمد، وإن كان ألماً فاصبر، وإن كان خطأ فتب وصحح. لا تفتح باب «لو» إلا بقدر ما ينتج تعلمًا. ثم أغلق الملف وارجع إلى عبودية اليوم الجديد.

لو حفظت هذه الوقفات الثلاث لم تحتاج إلى أن تتذكر كل صفحات الكتاب في كل موقف. ستتحول المعاني إلى عادات: استعانة قبل الفعل، أمانة في السبب، وتسليم بعد المقدور. وهذا هو المقصد؛ أن يصبح التوكل طريقة سير لا مادة قراءة فقط.

الباب الثالث عشر: التوكل في حياة اليوم

الانتظار الذي لا تملكه

من أشرق صور التوكل انتظار خبر لا تستطيع تعجيله: نتيحة فحوص، جواب وظيفه، قرار قبول، قضيّة، حمل، سفر، أو مصير مشروع. في هذه الفترات يبدو اليوم معلقاً على شيء واحد، في تقلص العالم حول شاشة أو اتصال. المشككة ليست في أهمية الخبر، بل في أن القلب يمنحه حق ابتلاع الحاضر كله. التوكل لا يطلب منك أن تتظاهر بأن الأمر لا يهم؛ يطلب أن تعرف أن الانتظار نفسه زمن عبادة، وأن الله لم يوقف تكاليف يومك حتى تأتي النتيحة.

ابداً بأن تفرق بين «متابعة لازمة» و«مراقبة قهرية». قد تحتاج أن تفحص البريد مرة أو مرتين، أو تتواصل في موعد متفق عليه، لكن إعادة التحديث كل دقائق لا تغير القرار غالباً؛ إنها محاولة لشراء شعور بالسيطرة. ضع موعداً للمتابعة، ثم عد إلى عملك وصلاتك وأهلك. هذا الحد العملي لا يلغي القلق فوراً، لكنه يمنعه من إدارة الوقت.

ثم اسأل عن الواجب الموازي. إذا كنت تنتظر وظيفة، ماذا يمكنك أن تتعلم أو تقدم لفرص أخرى؟ إذا كنت تنتظر فحصاً، كيف تعتني بجسدك اليوم؟ إذا كنت تنتظر ظرلاً، ما الحق الذي تستطيع أدائه من جانبك؟ انتظار خبر واحد لا يعني تعليق كل الأبواب. من رحمة الله أن حياتنا لا تختصر عادة في سبب واحد مهما بدا كبيراً.

وفي الانتظار تظهر عبودية الدعاء بصورة نقية. أنت لا تستطيع أن تدفع النتيجة بيدك، فتسأل من يملكها. لكن الدعاء لا يتحول إلى صفقة: دعوت إنني يجب أن يصل الجواب الآن. تدعو لأنك عبد ولأن الله كريم، وتبقى راضياً بربك حتى لو تأخر ما طلبت. قد تقول الدعاء نفسه مرات كثيرة، لكن اجعل التكرار عودة لا احتياجاً.

ومن المهم أن تحمي نفسك من تفسير كل إشارة. رسالة عادية ليست بالضرورة بشارة، وتأخر اتصال ليس بالضرورة رفضاً، وحلم الليل ليس نظاماً لإدارة المستقبل. القلق يحب صناعة معانٍ من الفراغ. التوكل يردك إلى الظاهر: ما المعلومة الحقيقية؟ ما الذي ثبت؟ وما الذي هو مجرد احتمال؟ هذا الانضباط يرحم القلب من قصص لا دليل عليها.

وإذا جاءت النتيجة التي تريدها، فاحمد الله ولا تجعل فترة الانتظار حجة لنسيان ما تعلمت. وإذا جاءت بغير ما تريد، اسمح للحزن أن يأخذ قدره، ثم اسأل عن الخطوة التالية. لا تجعل الخبر حكماً على قيمتك ولا على محبة الله لك. هو واقعة في طريق طويل، قد تفتح بعدها أبواب أخرى أو تعلمك ما تحتاجه. لا نجزم بحكمة خاصة، لكننا نوقن أن ما وقع لم يخرج عن علم الله وملكه.

التوكل في الانتظار أن تبقى حياً قبل وصول الخبر، وأن تبقى عبداً بعده. لا تجعل المستقبل يسرق منك الصلاة الحالية، والولد الجالس أمامك، والعمل الذي بين يديك. الغيب سيأتي في وقته؛ أما أمانة هذه الساعة فهي لك الآن.

الأخ بار والتهويل

في زمن تصل فيه الأخ بار إلى الجيب كل دقيقة، صار القلب يتعرض لمخاوف لم يكن يحملها بهذا التتابع. خبر اقتصادي في بلد بعيد، حرب، مرض، انهيار شركة، تحذير تقني، ثم مقطع يشرح أسوأ سيناريو. ليس كل اطلاع معرفة نافعة، وقد يزيدها الاستهلاك المستمر الانشغال بالخوف. التوكل هنا يحتاج إلى سياسة معلومات، كما يحتاج الجسد إلى سياسة طعام.

أول خطوة أن تفرق بين خبر يؤثر في قرارك وخبر يستهلك انتباهك فقط. إذا كان هناك خطر حقيقي يتعلق بسلامتك أو عملك، خذ المعلومة من مصدر موثوق وحدد الإجراء. أما إذا كانت الأخبار لا تغيّر شيئاً في واجبك الحالي، فالتعرض المتكرر لها قد يزيده القلق بلا منفعة. تقليل الاستهلاك ليس جهلاً متعمداً؛ قد يكون حفظاً للقلب والعقل.

والتهويل يعمل غالباً بلغة القطع: «النهاية»، «لا مفر»، «الجميع سيخسر»، «هذا سيغيّر كل شيء». المتوكل لا يصدق العناوين لمجرد قوتها. يسأل عن المصدر والسياق والاحتمال. كثير من المخاوف الحقيقية تحتاج استعداداً لا نعرّاً. فرق كبير بين أن تنظم احتياطاً مالياً بسبب تقلب محتمل وبين أن تهدم حياتك لأن مقطعاً واحداً أخافك.

كما أن كثرة الأخبار قد تصنع وهماً بأنك مسؤول عن كل مأساة تعرفها. تتألم لما يقع بالناس، وهذا من الرحمة، لكنك لا تملك إصلاح العالم كله. حدد ما تستطيع: دعاء، تبرع موثوق، نصرة حق بكلمة علم، مساعدة قريب. ثم لا تحول العجز عن الجميع إلى ذنب دائم. التوكل يعيد المسؤولية إلى حدودها.

وعند الأزمات العامة احذر من نشر ما لم يتحقق. الخوف يدفع الناس إلى إعادة الإرسال بسرعة، وقد يكون في ذلك ضرر. من التوكل أن تثبت؛ لأن رزق الناس وسمعتهم وطمأنيتهم حقوق. ليست كل رسالة عاجلة أمانة يجب أن تحملها. أحياناً تكون العبادة أن تتوقف عن التمرير.

التوكل لا يعادي المعرفة، بل يضعها في موضعها. تعلم ما ينفع، واستعد بما تستطيع، ولا تجعل تدفق الأخبار يقرر نبض قلبك. إذا ظهر خطر حقيقي فافعل السبب، وإذا لم يظهر فعد إلى يومك. ورب العالمين لم يكل إليك إدارة كل ما يقع على الشاشة.

الأرقام حين تصبح سيّداً

الأرقام نعمة في العمل والصحة والمال، لكنها قد تتحول إلى مرآة قاسية إذا جعلناها تعريفاً كاملاً للحقيقة. عدد الطابات، الرصيد، الوزن، ضغط الدم، المتابعون، التقييمات؛ كلها مؤشرات نافعة في موضعها، لكنها لا تملك أن تخبرك وحدها بقيمة الإنسان أو بحقيقة الغد. التوكل لا يرفض القياس؛ يمنع اختزال قيمة الإنسان وعلاقته بربه في مؤشر واحد. من الحكمة أن تسأل كل رقم: ماذا يقيس؟ وما الذي لا يقيسه؟ ربح الشهر يقيس نتيجته المالية في فترة، لكنه لا يقيس كل أثر العمل ولا يضمن الشهر القادم. تحليل طبي يقيس مؤشراً، لكنه لا يخبر الإنسان كله. تقييم جمهور يكشف رأياً، لكنه لا يحدد الحق. حين نعرف حدود الأرقام نستفيد منها أكثر، لأننا لا نطالبها بما لا تستطيع.

وقد يشهد الانشغال بالأرقام في صورة تكرار مرهق: تحديث لوحة الأداء كل دقائق، وزن النفس مرات، مراجعة الحساب باستمرار، مراقبة التفاعل بعد نشر كلمة. هذا التكرار يعطي لحظة سيطرة ثم يزيدها التعلق. ضرع مواعيد للقياس بحسب الحاجة، وفي المسائل الصحية اتبع خطة المختص، واترك بين القياسين مساحة للعمل. المؤشر يخدم القرار، لا ينبغي أن يستبدل العمل نفسه.

كما أن النجاح الرقمي قد يغري بالعجب. إذا ارتفعت النتائج
ظن الإنسان أن حكمته وحدها صنعتها، وينسى ظروفًا كثيرة
لم يصنعها: صحة الفريق، فرصة السوق، قبول الناس، زمن
مناسب. لا يمنع هذا الاحتفاء بالإنجاز، لكنه يضيء الحمد
والتواضع. ومن شكر النعمة أن تستعمل المعلومات لتحسين
الأمانة لا لتضخم الذات.

وعند انخفاض الرقم لا تجعل الذعري قود إلى قرارات
متناقضة كل يوم. راجع الاتجاه، وتأكد من جودة البيانات،
وابحث عن السبب، وغير ما يثبت أنه يحتاج تغييرًا.
التوكل هنا يمنحك هدوءًا كافيًا كي لا تتحول الإدارة إلى
سلسلة ردود أفعال.

في النهاية يبقى الرقم سبب معرفة، لا مصدر كفاية.
استخدمه بعقلك، ثم ارفع قلبك فوقه. ما لا يقاس في
شاشة قد يكون عند الله أعظم: صدق، عدل، أثر خفي، توبة،
أو حفظ حق. وحين يجتمع القياس مع هذا المعنى يصبح
العلم أداة عبادة لا منافسًا لها.

التقنية والذكاء الاصطناعي والأسباب الجديدة

كل جيل يواجه أسباباً جديدة تبدو في أول ظهورها أقرب إلى السحر. واليوم تدخل التقنية والذكاء الاصطناعي في التعليم والعمل والطب والتجارة، فتفتح إمكانيات وتثير مخاوف. ميزان التوكل لا يتغير: نستفيد من السبب المباح النافع، نعرف حدوده، ولا ننسب إليه استقلاً أو عصمة.

التقنية تضاعف القدرة، لكنها تضاعف الخطأ أيضاً. أداة تعطي جواباً سريعاً قد تخطئ، ونظام يحل بيانات كثيرة قد يبنى على بيانات ناقصة. لذلك من الأمانة أن يبقى الإنسان مسؤولاً عن التحقق في الأمور المهمة، خاصة ما يتعلق بحقوق الناس أو صحتهم أو دينهم. استعمال الأداة لا ينقل المسؤولية الأخلاقية إليها.

ومن التعلق الحديث بالأسباب أن نظن أن وجود التقنية يعني أن كل مشكلة لها حل فوري. هذا يخلق فساد صبر مع الواقع والبشر. بعض الأمور تحتاج زمناً وتربية وعلاقة لا تختصرها خوارزمية. يمكن للأداة أن تساعد، لكنها لا تملك هداية قلب ولا محبة صادقة ولا حكمة كاملة. هذه الحدود لا تنتقص من قيمتها؛ تحمي استخدامها.

وفي المقابل، رفض كل جديد خوفاً ليس توكلًا. قد يكون السبب الجديد أكثر نفعاً وأماناً من القديم. المسلم ينظر في الحكم والمصلحة والمفسدة ويستشير أهل الاختصاص. لا يجعل الخوف من المجهول حجة لتترك تعلم يحتاجه، ولا يجعل الانبهار حجة لفتح كل باب.

والخصوصية مثال واضح. القدرة التقنية على جمع معلومات لا تعني جواز جمعها بلا حاجة أو رضا. حفظ بيانات الناس من الحقوق. ومن التوكل ألا نبيع الأمانة لأجل نمو أسرع أو راحة مؤقتة. رزق المؤسسة لا يحتاج خيانة الثقة.

إذا استخدمت التقنية، اجعل لها طبقات حماية ومراجعة، واحتفظ ببدائل عند الأعطال، ودرب الناس بدل الاعتماد على فرد أو نظام واحد. هذه أسباب حديثة لكنها تدخل في القاعدة القديمة نفسها: أحسن السبب المشروع واعتمد على الله، واعلم أن الوسيلة لا تستقل بأثرها.

الفقد وما بعده

الفقد امتحان قاس للتوكل لأن السبب قد لا يتعطل فقط، بل يزول: شخص يموت، بيت يذهب، صحة تتغير، مشروع ينتهي. في هذه اللحظات لا ينفع خطاب سريعي قول «عوضك الله» كأن الحزن خطأ يجب إسكاته. التوكل يفسح للحزن مكانه، ثم يمنع الحزن من أن يقطع الصلة بالله. ليس الحزن وحده اعتراضاً على الله، ولا يُطالب المبتلى بأن يتظاهر بانعدام الألم. الفرق بين الحزن والاعتراض أن الحزن يقول: هذا يؤلمني، والاعتراض يتهتم الله. وقد يختلط على الإنسان الأمر في لحظات الضعف؛ فيحتاج رحمة وتذكيراً لا محاكمة.

بعد الفقد تتغير الأدوار. قد تحتاج الأسرة إلى إعادة ترتيب مالية، أو تعلم مهام كان يقوم بها من فقد، أو طلب مساعدة. هذه الأسباب ليست خيانة للذكرى، بل استمرار للحياة التي كلفك الله بها. بعض الناس يتجملون أنه يشعرون أن التحرك يعني النسيان؛ والحقيقة أن الوفاء يمكن أن يعي شمع البناء الجديد.

ومن التوكل ألا نجزم بتعويض دنيوي مطابق. قد يفتح الله خيراً جديداً، وقد يبقى أثر الفقد سنوات. وعد الله ليس صفقة تضمن نسخة بديلة من كل شيء. ما نوقن به أن رحمته وحكمته لا تنقطعان، وأن العبد لا يخرج من عبوديته بفقد نعمة.

ساعد المبتلى بسبب واضح: طعام، معاملة، مال، حضور، أو إنصات. لا تكثر الشرح في الأيام الأولى. أحياناً يكون أجمل التوكل أن يكون بعضنا لبعض أسباب رحمة.

ومع الزمن تعلم أن تحمل الذكرى من غير أن تحمل معها سؤال «لماذا أنا؟» كل يوم. قد لا تعرف الحكمة الخاصة، وليس مطلوباً أن تخرعها. يكفيك علم عام بأن الله حكيم وأنت عبد مأمور بالصبر والاستعانة. هذا العلم لا يمحو الحزن، لكنه يمنحه أرضاً يقف عليها.

العمل الجماعي والثقة

التوكل في الفريق يحتاج معنى إضافياً: أنت لا تملك عمل الآخرين كله، لكنك مسؤول عن بناء أسباب تجعل التعاون ممكناً. توزيع الأدوار، وضوح القرار، متابعة التنفيذه، والتوثيق؛ كلها أسباب. تركها ثم لوم الناس ليس توكلاً.

وفي الوقت نفسه لا يستطيع القائد أن يراقب كل تفصيل بنفسه. إذا حاول تحولات الإدارة إلى عنق زجاجة وقلق دائم. يحتاج إلى تفويض بشري مشروع: يوكل من يقدر، يحدد الصلاحية، ويتابع المؤشرات. هذا التوكيل للناس ليس التوكل القلبي؛ القلب يبقى مع الله، والعمل يوزع على الخلق. والثقة لا تعني غياب الرقابة. أفضل الأنظمة تجمع بين حسن الظن ووضوح الضوابط. لا تبني نظاماً على افتراض الخيانة، ولا على افتراض العصمة. اجعل الخطأ قابلاً للكشف والتصحيح من غير إذلال.

إذا أخطأ فرد، لا تجعل الخطأ دليلاً أن كل الفريق فاسد. عالج الواقعة، وافحص النظام: هل كان التدريب كافياً؟ هل المسؤولية واضحة؟ هل يوجد ضغط يدفع للأخطاء؟ هذه الأسئلة من إحسان السبب.

وعندما ينجح الفريق، وزع الشكر ولا تجعل نفسك مركز القصة. التوفيق جمع جهوداً وأوقاتاً وظروفاً. الاعتراف بالناس من الشكر لله، لأنه هو الذي سخرهم.

وفي الأزمات لا تنشر الهلع داخل الفريق. قل الحقيقة، حدد ما نعرف وما لا نعرف، وما الخطوة التالية. هذا النوع من القيادة يترجم التوكل إلى سكين عملية: لا إنكار للواقع ولا عبادة له.

حين تتعدد الأبواب

أحياناً لا تكون المشكلة باباً مغلقاً، بل أبواباً كثيرة. خيارات العمل والسكن والتخصص والعلاج توضع الإنسان أمام وفرة مربكة. يظن أن عليه اختيار «الخيار المثالي»، وأن أي خطأ سيضيع حياته. هذا التصوري يخلق شللاً. التوكل يذكره أن المطلوب اختيار راجح بحسب العلم المتاح، لا معرفة المسار المثالي في علم الغيب.

ابدأ بحذف الخيارات التي تخالف الشرع أو الحقوق، ثم استبعد ما لا يناسب القِيود الأساسية. بعد ذلك قارن عدداً محدوداً من البدائل. كثرة الخيارات بعد حد معين لا تزيد الجودة؛ قد تزيد الارتباك.

اسأل كذلك عن قابلية الرجوع. خيار يمكن تغْييره بعد أشهر لا يستحق مقدار الخوف نفسه الذي يستحقه قرار يصعب الرجوع عنه. وزن القرارات يخْتلف، والتوكل لا يعني أن نعطي كل قرار حجماً واحداً.

إذا تقاربت الخيارات جداً، قد لا توجد إجابة يمكن البرهنة أنها الأفضل. اختر واحداً بعد الاستخارة والمشاورة وابدأ في صناعة خيره. جزء من جودة القرار يأتي من حسن التنفيذ بعد الاختيار، لا من المقارنة قبله فقط.

ولا تتعاقب نفسك بمراقبة الطريق الذي لم تأخذه. كل طريق له مشرقاته التي لا تراها. المقارنة المستمرة بالبديل المتخيل تفسد الحاضر. راجع قرارك إذا ظهر دليل، لا لأن الخيال رسم حياة بلا عيوب في المسار الآخر.

التوكل هنا هو شجاعة الاختيار في عالم ناقص المعلومات. لا يمنحك يقيناً بأنك أخذت أفضل عالم ممكن، لكنه يمنحك كفاية أن تمضي في عالمك الواقعي مع الله.

آخر ما يتعلمه المتوكل

آخر ما يتعلمه المتوكل ليس حيلة جديدة لخفض القلق، بل معرفة نفسه عبداً. ما دام يظن أنه يستطيع أن يملك النتائج إذا تعلم بما يكفي وخطط بما يكفي، سيبقى المتوكل عنده خطة احتياط. وحين يرى حدود العلم والقدرة لا يتهزم؛ يعود إلى موضعه الطبيعي: يعمل لأنه مكاف، ويفتقر لأنه عبد.

هذا الفقر لا يلغي القوة. وقد جمع الحديث المتقدم بين القوة والحرص والاستعانة؛ فالأخذ بما ينبغي دفع لا يلغي افتقار صاحبه. القوة في الإسلام لا تعني الاستغناء، بل استعمال ما أعطاك الله وأنت تعرف مصدره. فتظل المهارة نعمة يشكر الله عليها، ويستعملها دون اغترار.

ومع الأيام ستكتشف أن بعض أكثر مواقعك بركة كانت تلك التي لم تملك فيها كل شيء. ربما تعلمت فيها الدعاء، أو رأيت لطف الناس، أو تركت معصية خوفاً على رزقك ثم ثبتك الله. لا نحتاج أن نفسر كل حدث بحكمة محددة، لكننا نستطيع أن نرى أن العجز نفسه باب معرفة.

وحين تنظر إلى الماضي لا تجعل النجاحات دليلاً أنك كنت دائماً على صواب، ولا الإخفاقات دليلاً أنك كنت متروكاً. تعلم بأن صاف. ما كان طاعة فاحمد، وما كان خطأ فتب، وما كان قدراً مؤلماً فسلم. هذه القراءة تمنعك من بناء هوية على حادثة واحدة.

ثم انظر إلى المستقبل بل من موضع أخف. لن تعرفه، ولن تحتاج أن تعرفه كله. ستأتيك مسؤوليات جديدة، وستحتاج إلى أسباب جديدة، وربما تعود المخاوف القديمة. لكنك تعلم الطريق: تعرف ربك، تفعل ما تستطيع، تستعين، وتفوض.

وهكذا لا يصبح التوكل نهاية كتاب، بل بداية عادة قلب. كل صباح فيه شيء لا تملكه، وكل صباح فيه شيء تستطيع فعله. بين هذين الحدين تعيش عبوديتك. وعلى الله توكلنا.

بعد الإنجازيأتي امتحان آخر

يظن الإنسان أن التوكل يحتاجه قبل العمل وأثناءه، ثم إذا انتهى المشروع انتهى الباب. لكن ما بعد الإنجاز امتحان مستقل. النجاح قد يصنع عجباً خفياً، والفشل قد يصنع اعتراضاً أو جلدًا للنفوس. كلا الطرفين يحتاج إلى عبودية. بعد النجاح تقول: هذا من فضل ربي، ثم تراجع ما يمكن تحسينه من غير إنكار للنعمة. وبعد الإخفاق تقول: قدر الله وما شاء فعل، ثم تبحث عن السبب الذي يحتاج إصلاحاً من غير أن تجعل القدر ستاراً للتقصير.

ومما يفسد ما بعد الإنجاز المقارنة. قد تنجح ثم تنظر إلى من نجح أكثر، فيضيع الشكر. وقد تفشل ثم تنظر إلى من لم يجرب أصلاً، فتعزين نفسك بطريقة تمنع التعلم. الأفضل أن تعود إلى معيارك: هل أديت ما عليك؟ ماذا تعلمت؟ ما الخطوة التالية؟ هذه الأسئلة تحفظ القلب من أن يحول النتائج إلى محكمة قديمة.

والتوكل بعد النجاح يظهر في الاستمرار في الأسباب. لا تقل: نجحت مرة إذن أصبحت محصناً من الخطأ. السوق يتغير، والجسد يتغير، والناس يتغيرون. شكر النعمة أن تحافظ على جودة العمل وأن تعترف بأن استمرارها يحتاج توفيقاً جديداً.

وبعد الفشل لا تهدم كل ما بنيت. افصل بين عنصر أخطأ
وعنصر نجحت. قد تكون الفكرة صحيحة والتنفيد
ضعيفاً، أو التوقيات سيئاً، أو القرار نفسه يحتاج تركاً.
التوكل لا يعطيك إجابة جاهزة، لكنه يعطيك هدوءاً يسمح
برؤية التفاصيل بدل الحكم الشامل.

ثم لا تجعل النتيجة مبرراً لتغيير المبادئ. نجاح الحرام لا
يجعله حلالاً، وفشل الصدق لا يجعله سذاجة. من التوكل أن
تثبت القيم فوق تقلب النتائج، لأن رزقك ونجاحك لا
يحتاجان إلى معصية.

وهكذا تصبح نهاية كل تجربة بداية معرفة جديدة: الحمد
عند الفتح، والتعلم عند العثرة، والاستعانة في الطريق الذي
يأبىها.

المحاولة الثانية

المحاولة الثانية أصعب أحياناً من الأولى، لأن الأولى تحمل حماس المجهول، والثانية تحمل ذاكرة الفشل. هنا يظهر التوكل بصورة مختلفة: ليس في الشروع من الصفر، بل في عدم جعل الماضي نبوءة. تتعلم من التجربة، لكنك لا تسمح لها أن تقول إن كل مستقبلي نسخة منها.

قبل إعادة المحاولة لا تكرر كل شيء كما كان. راجع ما ثبت أنه سبب في التعثر، واستشر، وغيّر ما يلزم. التوكل لا يعني الإصرار على الوسيلة نفسها. قد يكون صدق الاعتماد في ترك مشروع كامل إذا ظهر ضرره، وقد يكون في المحاولة بطريقتي أفضل إذا بقي الأصل نافعاً.

اسأل نفسك: هل أريد المحاولة لأن المعنى ما زال صحيحاً، أم لأنني لا أحتمل الاعتراض بأن الطريق انتهت؟ هذا السؤال يحمي من عناد يلبس ثوب الثبات. وكذلك أسأل: هل أريد التوقف لأن الحكمة تقتضي، أم لأنني أخاف الألم؟ بين الجوابين مساحة تحتاج صدقاً ومشاورة.

إذا قررت العودة، صغر البدايتي. التجربة الصغيرة قد تكون أنفع من قفزة كبرى. ضع مقياساً واضحاً لما ستعده تقدماً، ومدة للمراجعة. هذا يخرج المحاولة من عالم الأمل المجرد إلى سبب منظم.

ثم احرس قلبك من الحاجة إلى إثبات نفسك. أنت لا تعيد المحاولة لتثبت للناس أنك لا تفشل؛ تفعلها لأنك ترى فيها خيراً أو واجباً. إذا تحولت إلى معركة كرامة، صار القرار أسيراً لنظر الناس.

المتوكل يستطيع أن يحاول مرة أخرى، ويستطيع أن يتوقف، لأن قيمته ليست معلقة على النتيجة. كلاهما قد يكون شجاعة إذا وافق الحق.

الخسارة المالية

الخسارة المالية تجمع بين ألم الواقع وخوف المستقبل. قد تكون أرقامًا على شاشة، لكنها تمس النفقة والدين وأمان الأسرة. أول أدب في التوكل هنا هو عدم إنكار الضرر. سم الخسارة باسمها، وأوقف النزيه إن كان مستمرًا، واجمع المعلومات. الخطاب الروحي الذي يقفز فوق الحساب قد يزيده الضرر.

ثم فرق بين خسارة ناتجة عن تقلب عادي، وخسارة من خطأ يمكن تصحيحه، وخسارة من مخالفة أو تهور. كل نوع يحتاج استجابة مختلفة. لا تستخدم القدر لمنع المساءلة، ولا تستخدم المساءلة للاعتراض على القدر. قد تجتمع جملة «كان يمكنني أن أتصرف أفضل» مع جملة «وما وقع لم يخرج عن علم الله».

إذا كان هناك دين أو حقوق للناس، قدمها في الخطة ولا تجعل إنقاذ صورتك أولى من حقوقهم. تواصل بصدق، واطلب مهلة إن احتجت، وخفف ما يمكن. التوكل في المال يظهر بقوة حين يرفض الإنسان الكذب لإخفاء التعثر.

ولا تتخذ قرارات كبرى في ذروة الذعر ما لم يكن هناك خطر عاجل. بعض الخسائر تدفع صاحبها إلى مضاعفة المخاطرة لتعويض سريع، فيزداد الضرر. اهدأ، واستشر من يفهم، وضع حدودًا لما تستطيع تحمله.

وفي البيت شارك من يلزمهم الأمر بقدر مناسب، ولا تحمل
وحدك سرّاً ينهكك إذا كان القرار جماعياً. الشفافية الرحيمة
سبب، وليست إعلاناً للضعف.

والأهم ألا تحول المال إلى ميزان رضا الله. قد يخسر صالح
ويربح غيره. نحن مأمورون بالحلال والأمانة، لا بضمان
الربح. بعد أن تفعل ما تستطيع، ارفع قلبك عن الرقم
وابدأ ببناء ما بعده خطوة خطوة.

النجاح حين يخدع القلب

كما أن الفشل يختبر التوكل، النجاح يختبره وربما بصورة أخفى. عندما تتتابع النتائج الجيدة يسهل أن ينسى الإنسان هشاشة الأسباب. يبدأ في تفسير كل شيء بذكائه، ويرى نصائح الآخرين أقل قيمة، ويظن أن ما نجح مرة سينجح دائماً. هنا يتحول النجاح من نعمة إلى حجاب.

علاج ذلك ليس إنكار إنجازك أو التقليل من جهدك. اعترف بالعمل واشكر الفريق، لكن أضف إلى القصة ما هو أصدق: كانت هناك ظروف لم تصنعها، وتوفيق لم تملكه، وأخطأ ستورها الله، وفرص فتحت. هذا الوعي يجعل الثقة أكثر تواضعاً. ومن شكر النجاح ألا تتوسع بسرعة لمجرد أنك تستطيع. اسأل هل الأنظمة تتحمل، وهل الحقوق محفوظة، وهل الجودة قائمة. الطموح قد يكون خيراً، لكن التوسع الذي يضيع الأمانة ليس شكرياً.

كذلك احذر أن يصبح القبول الاجتماعي مخدراً. زيادة المدح قد تغير النية من خدمة المعنى إلى حماية الصورة. ارجع إلى عمل لا يراه الناس، وإلى دعاء خفي، وإلى أشخاص ي قولون لك ما لا تحب سماعه. هذه أسباب لحفظ القلب.

وإذا جاءت نتيجته أقل بعد فترة نجاح، لا تفسرها فوراً ككارثة. النجاح السابق لا يصنع عقداً مع المستقبل. راجع السبب كما كنت تفعل قبل الشهرة.

المتوكل عند النجاح أكثر حذرًا من العجب، وأكثر شكرًا للناس،
وأقل ادعاء للضمان. يعرف أن النعمة تحتاج إلى رب يحفظها،
وأن أفضل ما يفعله بها أن يستعملها في طاعته.

الدعاء ليس بدئيًّا عن القرار

الدعاء من أعظم أسباب التوكل، لكنه قد يساء استعماله حين نجعله طريقة للهروب من قرار واضح. يقول الإنسان: سأدعو فقط، وهو يعرف أن عليه أن يتصل أو يعتذر أو يراجع الطبيب. الدعاء الحقيقي لا يطفئ التكليف؛ يمدد بالعون. وفي الجهة الأخرى قد يعمل الإنسان حتى ينهك ثم يتذكر الدعاء كأخر خيار. هذا أي ضلّال؛ لأنه يتعامل مع الله كخطة طوارئ. الأفضل أن يبدأ العمل بالافتقار، ويصحب السبب بالدعاء، ويختتم بالتسليم.

لا تحتاج في كل دعاء إلى صيغة طويلة. قد يكفي «اللهم أعني» إذا خرجت من قلب حاضر، ثم تقوم بالفعل. وقد تحتاج تفصيل حاجتك لأن التفصيل نفسه عبودية ومناجاة. المهم ألا يتحول الدعاء إلى شرط للنتيحة: دعوت بهذا العدد إذن يجب أن يحدث كذا.

الدعاء كذلك يساعد على تصحيح الطلب. حين تعرض حاجتك على الله مرارًا قد ترى أن فيها تعلقًا أو ظلمًا أو ضيق نظر، فتعدلها: لا تطالب مجرد الوظيفة بل رزقًا حلالًا نافعًا، ولا مجرد الانتصار في الخصومة بل ظهور الحق وحفظك من الظلم.

وإذا تأخرت الإجابة فلا تتهم الدعاء. استمر في ما ينبغي،
وراجع السبب، واترك توقيت الفرج لله. لا نعلم صورة الإجابة
ولا وقتها، لكننا نعلم أن الدعاء عبادة لا تضيع.
أجمل صورة للدعاء في التوكل أن يخرج منه العبد أقوى على
الطاعة، لا أكثر مطالبة بالضمان.

الشكر بعد الفتح

حين يفتح الله باباً بعد ان تظار، يكون القلب قريباً من نسيان كل ما قاله في الشدة. لذلك الشكر جزء من التوكل، لأنه يعيد النعمة إلى المنعم. لا يكفي أن تقول «الحمد لله» ثم تعود إلى وهم الاستقلال؛ الشكر علم وقول وعمل.

اعلم أولاً أن الفتح فضل، حتى لو جاء بعد تعب طويل. تعبك سبب ولم يخلق النتيحة وحده. ثم اشكر الناس الذين كانوا أسباباً؛ نسبة الفضل لله لا تعني إنكار أيدي الخلق. واذكر إحسانهم ولا تنسب جهدهم كله إلى نفسك.

والشكر العملي أن تستعمل الفتح في خير. إذا جاء المال فأد الحقوق، وإذا جاء المنصب فازدد عدلاً، وإذا جاءت الصحة فاحفظها بالطاعة، وإذا جاء الصلح فتعلم من أسباب الخلاف. النعمة التي لا تغير العمل قد تبقى في اللسان أكثر مما نزلت إلى القلب.

ومن الشكر ألا تعير من لم يفتح له الباب نفسه. قد تنجح في علاج ويفشل غيرك، أو تجد عملاً ويأخر غيرك. لا تحول نعمتك إلى معيار فضل مطلق. قل: هذا فضل الله علي، وأسأله لإخواني الخير.

ثم احفظ درس الشدة. اكتب ما تعلمته قبل أن تمحوه الراحة. ما الذي كان يستحق القلق وما الذي لم يكن؟ من وقف معك؟ أين قصرت؟ هذا يحول الابلتلاء إلى معرفة نافعة.

والفتح ليس نهاية الحاجة إلى الله. ربما يكون ما بعده أشد
فتنة من قبله. لذلك يختم المتوكل بالافتقار نفسه الذي
بدأ به: يا رب، كما فتحت فبارك واحفظني من نفسي.

الصمت والكلام كلاهما سبب

في بعض المواقف يكون الإنسان أسير فكرة أن التوكل يعني الكلام دائماً: يجب أن أشرح، وأدافع، وأرد، وأقنع. وفي مواقف أخرى يختبئ في الصمت خوفاً ويقول: فوضت أمري إلى الله. والحقيقة أن الكلام والصمت كلاهما سبب، ولكل واحد موضعه. لا يحدد صدق التوكل كثرة الكلمات، بل موافقتها للحق والحكمة.

إذا كان هناك حق يجب بيانه، أو ظلم يحتاج شهادة، أو خطأ يتسع بالصمت، فقد يكون الكلام واجباً أو مطلوباً. عندها استعن بالله وقل بقدر الحاجة، من غير تعدي ولا مبالغة. لا تجعل خوفك من رد الفعل يسقط الحق. وفي المقابل، إذا كان الكلام سيزيد خصومة لا فائدة منها، أو سيكشف سراً، أو سيكون مجرد دفاع عن صورة النفس، فقد يكون الصمت أقرب إلى الأمانة.

من أصعب صور التوكل أن تقبل أن بعض الناس لن يفهموك حتى بعد البيان. تشرح مرة أو مرتين، وتقدم ما يلزم من دليل، ثم لا تستطيع أن تدخل إلى قلوبهم. هنا يبدأ التفويض. إعادة الشرح عشرات المرات قد لا تكون صبراً، بل عجزاً عن قبول أنك لا تملك تصور الآخرين.

وفي زمن الرسائل السريعة يتضاعف هذا الاختراب. كلمة تكتبها في دقيقة قد تبقى وتنتشر. من الحكمة أن تؤجل الرد عند الغضب، وأن تقرأ ما كتبت كأنك الطرف الآخر،

وأن تسأل: هل هذا الكلام يحقق مقصدًا مشروعًا أم يفرغ
انفعالي فقط؟ التأخير القصير سبب يحمي اللسان الرقمي
كما يحمي الصمت اللسان المباشر.

والتوكل لا يعني أن تتنازل عن حق الرد النظامي أو المهني. إذا
احتاج الأمر خطاباً رسمياً أو توثيقاً فافعله بإتقان. ثم
بعد أن تؤدي ما عليك لا تجعل قلبك معلقاً بكل تعليق أو
تأويل. أنت مسؤول عن صدقك وعدلك، لا عن أن يصفق لك
الجميع.

بهذا يتعلم القلب أن الكلمة ليست سلاحه الوحيد، وأن الصمت
ليس دائماً هزيمة. كلاهما أداة في يد عبد يسأل الله أن يهديه
لأحسن القول والعمل.

السفر والمخاطر اليومية

السفر يجمع صورًا صغيرة من التوكل: طريق لا تعرف كل مفاجآت، مركبة تعتمد فيها على نظام وصيانة وسائقين آخرين، وحاجات تحملها وتترك أشرياء خلفك. لذلك كانت أدعية السفر والركوب تذكر الإنسان بأن الحركة نفسها نعمة وتحت تدبير الله.

الأخذ بالأسباب في السفر واضح: صيانة المركبة، ربط الحزام، معرفة الطريق، حفظ الوثائق، اختييار وقت مناسب، والتأكد من أحوال الطقس أو الأنظمة عند الحاجة. هذه ليست وسوسة في أصلها، بل مسؤولية. لكن المبالغة قد تحول الرحلة إلى سلسلة فحوص لا تنتهي. يكفيك السبب المعتاد المعتبر، ثم تمضي.

ومن التوكل أن تقبل أن الطريق لا يمكن ضمانه بالكامل. قد تتأخر رحلة، أو يتغير حجز، أو يحدث عطل. بعض الناس يفسر كل تغيير بأنه كارثة شخصية، في فقد قدرته على التعامل. المتوكل يتضايق ويبحث عن البديل، لكنه لا يجعل التأخير خصومة مع القدر.

كما أن الاعتماد على الأنظمة الحديثة لا يلغي الحاجة إلى الاستعداد البسيط: نسخة من وثيقة مهمة، وسيلة اتصال، معرفة جهة مساعدة. وجود خطة بديلة ليس سوء ظن بالله؛ هو استعمال للعقل الذي وهبه.

وفي السفر يظهري حسن الخلق أي ضاً. الض غط قد ي كشف أن
الإنسان كان متوكلاً ما دامت الأمور تمشي وفق جدولته فقط.
حين تتعطل، يظهري الصبر والعدل مع الموظفين وأهل البيوت.
ليس من التوكل أن تظلم شخصاً لأنه لم يملك تغيير النظام.
كل رحلة تذكرنا بمعنى أوسع: نحن نتحرك في دنيا لا
نملكها. نحمل زاداً ونرتب، ثم نمضي مستعنيين. وهذا
التدريب الصغيري شبيه الطريق كله.

المسؤولية لا تسقط باتفويض

تأمل مثلاً تمتثلياً من رعاية الأهل: تتفق أسرة أن يتابع أحد الأبناء مواعيد علاج والده. يعرف الآخرون أنه أمين، لكنهم لم يخبروه بموعد تغير، ولم يتفقوا على من يرافق المريض. في مثل هذا المثال لا تكفي حسن النيات؛ تحتاج الرعاية إلى معلومة تصل ودوري توضح.

وكذلك حين توكل شخصاً في أمر يجوز توكله فيه: تختار الأمين الكفاء، وتبين المطلوب وحدود الصلاحية، وتتابع بقدر أهمية المهمة. تختلف الواجبات وتبعات الخطأ باختلاف العقد والحال، فلا تجعل كلمة «فوّضت» جواباً يعفيك من كل ما بقي عليك.

والاتفويض القلبي لله يصحب أداء هذه المسؤولية. من له حق عندك يحتاج وفاءً، ومن يعمل معك يحتاج وضوحاً. السجل أو الاتفاق المكتوب قد يحفظ الذاكرة ويقلل النزاع، مع بقاء حسن الظن وحسن المعاملة.

وحيث يمس القرار آخري، لا تكفي عبارة «استخرت» لإغلاق المراجعة. الاستخارة عبادة، والقرار يبقى محتاجاً إلى معلومات وعدل ومشورة. تستطيع أن تطمئن إلى ما ترجح لك، وتظل مستعداً لتصحيحه إذا بان خطأه.

وإذا ضاع حق، فابدأ بما يلزم لإصلاحه. حسن قصدك له مكانه،
لكن المتضرر يحتاج أي ضاً إلى فعل يرفع الضرر. تعلم من
الواقعة: أي معلومة لم تصل؟ وأي مسؤولية بقيت مبهمة؟ ثم
أصلح ما تستطيع واستعن بالله على الوفاء.

مساء المتوكل

قد يذهب الإنسان إلى فراشه وهو يحمل بقية يومه في رأسه: محادثات لم تنته، أرقام لم تستقر، احتمالات الغد. يمكن أن يكون المساء تدريجاً يومياً على التوكل. لا تحتاج طبقاً معقداً؛ تحتاج تترتياً بياً بين ما أنتهى وما سيستأنف.

قبل النوم راجع سرياً: ما واجب بقي ويمكن جدولته؟ اكتبه بدل أن تحمله في الذاكرة. ما خطأ يحتاج اعتذاراً أو توبة؟ حدد أول خطوة. وما أمر لا تستطيع فعله الليلة؟ سمّه ثم اتركه. مجرد التفريق بين هذه الأنواع يقلل الدوران.

بعد ذلك اختتم بالآذكار الثابتة والدعاء. معنى النوم نفسه تذكير بالفقر: تسلم وعيك ساعات، ولا تستطيع أن تحرس قلبك ونفسك بنفسك. لذلك كان ذكر الله عند النوم جامعاً للتفويض والافتقار.

إذا عاد القلق، لا تدخل في اجتماع جدي مع المستقبل الساعة الثانية صباحاً ما لم تكن هناك ضرورة. قل لنفسك: هذا الأمر له وقت غداً. ليس كل خاطر أمراً يجب تنفيذه الآن. حفظ النوم سبب يعين على قرار أفضل في الصباح.

وإذا كان هناك حزن لا ينام بسهولة، فلا تتهم نفسك. اقرأ ما تيسر، تنفس، واطلب السكينة، واستعن بمختص إذا صار الأرق مرضياً. التوكل لا يجعل الجسد بلا حدود.

وهكذا يصبح المساء خاتمة صغيرة لكل يوم: نصلح ما
نستطيع، ونستغفر مما قصرنا، ونكتب ما سنفعله، ثم
نستريح مستعينين بالله على يوم جديد. لم ننته من كل
شيء، لكننا لسنا مطالبين أن ننتهي من الكون قبل أن ننام.

الدعاء للآخرين وترك التملك

قد تدعو طويلاً لشخص تحبه، ثم تجد نفسك بعد الدعاء أكثر تعلقاً بأن يتغير بالطريقة التي تريدها. هنا يحتاج الدعاء نفسه إلى توكل. أنت تسأل الخير، لكنك لا تملك أن تكتب صورة الاستجابة ولا تتوقيتها. هذا لا يضعف المحبة، بل يظهرها من التملك.

إذا كان الشخص قريباً منك، افعل ما لك من حقوق وواجبات: نصح، رعاية، علاج، حدود، أو دعم. ثم لا تجعل كل مجلس معه اختصاراً لمدى استجابة دعائك. الناس يتغيرون بطرق لا نحيط بها، وبعض التغيير بطيء.

وحيث تدعو لابن أو زوج أو صديق، وسع الدعاء من مطالب واحد إلى خيره كله: الهداية، والعافية، وصلاح الدين والدنيا. قد نضيق أحياناً فنطلب صورة نحبها نحن أكثر مما نطلب الخير الذي يعلمه الله.

ولا تستعمل الدعاء لتبرير البقاء في ضرر. يمكنك أن تدعو لمن ظلمك وأن تطلب حماية أو حقاً في الوقت نفسه. الرحمة لا تلغي الحدود.

وفي هذا الباب راحة عظيمة: تحب، وتدعو، وتعمل، ثم تعرف أن هذا الإنسان عبد لله قبل أن يكون جزءاً من قصتك. هذا المعنى يعيد العلاقات إلى التواضع، ويمنع القلب من أن يحمل ما ليس له.

التوكل حين لا يوجد خيار جيد تمامًا

بعض القرارات لا تقدم لك خيارًا جمليًا وآخر سيئًا، بل خيارين كلاهما فيه ثمن. مرض له علاجان بآثار مختلفة، ان تقال يحفظ عملاً ويبعدك عن أهل، قرار أسري لا يرضي الجميع. هنا يشترد القلق لأن النفس تريد طريقاً بلا خسارة. أول خطوة أن تقبل طبيعة المسألة. إذا كانت المفاضلة بين مصالح ومفاسد، فعدم وجود خيار كامل ليس دليلاً أنك لم تبحث بما يكفي. قد يكون الكمال غير موجود أصلاً. اسأل عن الأهم والأشد ضرراً والأقرب للحق.

ثم لا تجعل الحزن على الجانب المفقود دليلاً أن القرار خطأ. يمكن أن تختار الصحيح وتبكي ثمنه. المشاعر لا تحكم وحدها على جودة الاختيار.

استشر من يفهم التفاصيل لا من يعطي شعارات عامة، واستخر، ثم تحمل مسؤولية القرار بقدر الاستطاعة. إذا ظهرت نتيجة مؤلمة بعد ذلك، لا تقرأ الماضي كأنك كنت تعرفها.

التوكل في هذه المواقف أن تقول: يا رب، هذا ما ظهر لي بعد وسعي، فأعزني على خيره واصرف عني شره. أنت لا تدعي العصمة، بل تمضي بعلم ناقص تحت علم كامل.

إذا طال الطريق

طول الطريق يستهلك التوكل أكثر من صدمة واحدة. في البداية يكون الحماس قويًا، ثم تأتي الشهور المتشابهة: علاج مستمر، دين يسد ببطء، دراسة طويلة، تربية لا تظهر ثمرتها سريعًا. هنا يحتاج القلب إلى توكل متجدد لا دفعة واحدة.

لا تحمل الطريق كله كل صباح. اسأل عن واجب اليوم. جرعة الدواء، صفحة الدراسة، قسط الدين، جلسة الحوار. تجزئة الطريق لا تنكر الهدف؛ تجعل الاستمرار ممكنًا.

راقب التقدم على فترات مناسبة، لا كل ساعة. الأشياء البطيئة لا تظهر إذا قستها كثيّرًا. وقد تحتاج إلى تعديل الخطة إذا ثبت أنها لا تعمل، لكن لا تغيّرهما من ملل فقط. واحفظ مصادر القوة: نوم، صحبة صالحة، عبادة، راحة مباحة. الاستنزاف ليس علامة إخلاص. الذي يريد طريقًا طويلاً يحتاج أن يصون المركبة.

إذا جاءك اليأس، تذكر أن طول المدة لا يعني أن الله غاب. أنت ترى الزمن من داخله، وربك يعلم بدايته ونهايته. لا تعد نفسك بنتيجة معينة، لكن وعد نفسك بالعودة إلى الله كلما تعبت.

التوكل الطويل هو أن تجدد اعتمادك على الله بأعمال صغيرة متتابة، حتى يصبح السير نفسه عبادة.

حين يسيء الناس فهمك

من أثقل ما على النفس أن تفعل ما تراه صواباً ثم يُفهم على غير وجهه. قد تصمت حفظاً لسر في ظنك الناس عاجزاً، أو ترفض طلباً محرماً في صفوفك بالقسوة، أو تغير قراراً بعد ظهور معلومات جديدة في سمونه تردداً. هنا يختبر التوكل تعلق الإنسان بصورة نفسه في عيون الآخرين.

ليس الحل أن تتجاهل السمعة مطلقاً. البيان مطلوب إذا ترتب على سوء الفهم ضرر أو ضاع حق. وضح بقدر الحاجة، وأظهر المستند أو السبب إن كان مناسباً، واستعمل القنوات الصحيحة. لكن بعد البيان يوجد حد لا تملكه: قد يصر بعض الناس على فهمهم. إعادة الدفاع بلا نهاية قد تحول حياتك إلى محكمة لا تغلق.

اسأل نفسك: هل بقي شيء حق يجب أن أقوله، أم أنني أريد فقط أن أجبر الجميع على رؤية صورتي كما أحب؟ إذا كان الثاني، فهنا موضع التفويض. لا تستطيع أن تدخل كل قلب وتعيد ترتيب أحكامه.

ومن التوكل أن تتقبل أن الحق قد يكون معك في أصل المسألة مع وجود خطأ في أسلوبك. لا تجعل ظلم الناس لك سبباً لرفض كل نقد. خذ الجزء الصحيح، واعتذر عنه، واترك الباطل. هذه القدرة على التفكيك تحرر القلب من منطلق «إما أنا بريء بالكامل أو أنا مخطئ بالكامل».

إذا حَفَظْتَ علاقتك بالله والحق، ستستطيع احتمال قدر من
سوء الفهم من غير أن يتحول إلى هوية. السمعة نعمة نحفظها
بالحق، ولا نجعل طلاب رضا الناس سبباً لتركه.

الفراغ بعد القرار

بعض الناس لا يتعب من القرار نفسه بقدر ما يتعب من الفراغ الذي يأتي بعده. بعد أن يرسل الطلب أو يوقع العقد أو يبدأ العلاج لا يبقى شيء يفعل فوراً، فيعود العقل ليملأ الفراغ باحتimalات. هذا الفراغ جزء من التوكل؛ لأنه المساحة التي تظهر فيها حقيقة أنك لا تملك كل مراحل النتيجة.

أفضل ما تفعله هو أن تعطي الانتظار شكلاً. حدد متى ستكون المتابعة التالية، وما العلامة التي تستدعي تدخلاً مبكراً، ثم ضع الأمر خارج دائرة الانتباه حتى ذلك الموعد. لا يعني هذا النسيان، بل إدارة الانتباه.

املاً الفراغ بما هو حاضر ونافع، لا بمجرد تشتيت فارغ. اعمل في مشروع آخر، اجلس مع أهلك، اقرأ، تحرك. القلب يحتاج أن يتعلم أن أمراً مهماً يمكن أن يبقى معلقاً بينما الحياة مستمرة.

إذا جاءك دافع لتعديل القرار بلا معلومة جديدة، سجله وانتظر. كثير من الندم المبكر مجرد قلق يتنكر في صورة تحليل. أما إذا ظهرت حقيقة جديدة فعلاً، فالمراجعة واجبة بقدرها.

وفي هذا الفراغ يمكن أن يكون الدعاء أهدأ. لم يعد دعاء استعجال فقط، بل دعاء تفويض: يا رب، قد فعلت ما أستطيع، فأصلح لي ما وراء قدرتي.

من تعلم تحمل الفراغ بعد القرار صار أقدر على المشاريح
الطوية والعلاقات والمرض، لأن معظم الحياء لىست فعلاً
مستمرًا؛ ففها أزنة نزرع ثم ننظر.

الشرجاعة في طلب المساعدة

قد يخفى الاعتماد على النفس في صورة قوة دينية: «لا أحتاج أحداً، الله معي». نعم، الله مع عبده، لكنه خلق الناس لأسباباً لبعضهم. قبول المساعدة فيما يقدّر عليه الخلق لا يناقض التوكل، كما أن طلب الطبيب أو الدليل أو المستشار لم يناقضه.

الصعوبة أن طلب المساعدة يكشف ضعفًا نحب إخفاءه. قد نحتاج مالا مؤقتاً، أو علاجاً نفسياً، أو استشارة أسرية، أو دعماً في العمل. الاعتراف بالحاجة قد يكون أصعب من المشكلة نفسها. التوكل يحررك من عبادة الصورة: لا يلزم أن تبدو قادراً على كل شيء حتى تكون عزيزاً بالله.

اطلب المساعدة بوضوح وحدود. قل ما تحتاجه وما تستطيع فعله أنت، ولا تجعل المساعد مسؤولاً عن حياتك كلها. هذه الحدود تحفظ الكرامة للطرفين. واشكر من أعانك، ولا تنسب إليه ما لا يملك؛ هو سبب سخره الله.

كذلك كن مستعداً أن تكون أنت سبباً لغيرك. قد يفتح الله للإنسان باب توكل من جهة العطاء: ينفق، أو يدل على عمل، أو يحمل مريضاً، أو يسمع مهموماً. حين تساعد لا تمن على الناس، فأنت أيضاً عبد مستخدم في قدر الله.

وإذا رفض شخص مساعدتك أو عجز، لا تجعل ذلك نهاية
الرجاء. جرب باباً آخر مشروغاً. السبب الواحد ليس الخزان
كلها.

طلاب المساعدة إذن ليس نقضاً للتوكل، بل قد يكون من
صدقه: أن تعرف حدودك، وتستعمل ما أتاح الله، ويبقى
قلبك مع المعطي الأول.

حين لا تستطيع إصلاح الماضي

الماضي باب لا يفتح بالفعل من جديد، ومع ذلك يقيضي بعض الناس ساعات في محاولة تغْييره داخل أذهانهم. يعيدون الحوار، ويكتبون جواباً متأخراً، ويتخيلون قراراً آخر. المراجعة نافعة إذا أخرجت توبة أو تعويضاً أو تعلمًا، لكنها تصبح عبئاً حين لا تنتج إلا نسخة جديدة من المشهد نفسه.

التوكل بعد الخطأ يبدأ بالصدق. إذا كان هناك حق فردّه، وإن كان ذنباً فتب، وإن كان تقصيراً يمكن إصلاح أثره فافعل. ثم اعترف أن جزءاً من القصة صار خارج قدرتك. هذه الجملة مؤلمة لكنها محررة: لا أستطيع أن أغير ما وقع، وأستطيع أن أختار ما أفعله الآن.

وقد يحاول الإنسان معاقبة نفسه ظناً أن استمرار الألم دليل إخلاص. لكن التوبة ليست احتقاراً دائماً للذات، بل رجوع إلى الله وترك للذنوب وعزم على الإصلاح. بعد أداء ما يلزم، استمرار جلد النفس لا يعيد حقاً ولا يمحو واقعة.

إذا كان الخطأ في قرار دنيوي، سجل الدرس بوضوح: ما المعلومة التي فاتت؟ ما الإجراء الذي سيتغير؟ ثم توقف عن إعادة المحاكمة. بهذا يتحول الماضي إلى معلم لا سجان.

والسليم للمقدور لا يعني أن تقول إن الخطأ كان صواباً. يمكن أن تجمع بين الاعتراف بأنك أخطأت وبين الإيمان أن ما وقع لم يخرج عن علم الله. هذا الجمع يحفظ المسؤولية من تعطيها بحجة القدر، ويحفظ القلب من الاعتراض.

المتوكل لا يعي شرباً لندم، لكنه يجعل الندم طريقاً إلى الله لا بيتاً دائماً يسكنه.

أول الصباح: استعانة وسعي

الصباح لحظة مناسبة لفهم التوكل لأن اليوم كله لم يبدأ بعد، ومع ذلك يحمل احتمالات لا تحصى. لا تعرف من ستقابل، وما الخبر الذي سيأتي، وما الذي سينجح أو يثبط. ومع هذا تقوم وتبدأ. هذه الحركة اليومية نفسها صورة صغيرة من الاعتماد: لا تملك اليوم كله، لكنك تملك أول خطوة.

ابدأ بعبادات الصباح وأذكّره لا كحاجز سحري عن كل مكروه، بل إعلان افتقار. أنت تسأل الحفظ والعون، ثم تخرج إلى الأسباب. لا تجعل الذكر بديلاً عن إعدادك للعمل، ولا تجعل الإعداد يغنيك عن الذكر.

حدد ثلاث أولويات واقعية بدل قائمة ترهقك. ما الواجب الذي لو تم كان اليوم مثمراً؟ ما حق الله؟ ما حق الناس؟ تترتب الأولويات من الأسباب التي تمنع العجز الناتج عن التشتت. وفي أول موقف يعاكس خططك تذكر أن جودة اليوم لا تقاس بمدى طاعته لجدولك. قد يتغير الموعد أو يثبط سبب. عد إلى السؤال: ما عبوديّتي الآن؟ أحياناً تكون إعادة ترتيب، وأحياناً صبراً، وأحياناً قبولاً بأن ما خططته لن يتم اليوم. وفي النجاح الصغير لا تمر بلا حمد. تعود النفس بسرعة إلى نسبة الأمور لنفسها. قل الحمد لله، واشكر من أعان، ثم أكمل.

إذا عشت الصباح بهذه الروح، صار اليوم سلسلة من توكلات
صغيرة لا انتظاراً لأزمة كبيرة. وكل ليلة تضع ما بقي بين
يدي الله، ثم تستيقظ لتبدأ مرة أخرى.

كفاية لا نملي صورتها

يميل القلب إلى البحث عن كلمة أخيرة تقول له: لن يحدث شيء سيئ. لكنه لا يجد هذه الكلمة في الدنيا؛ يجد بدلاً منها رباً يعلم كل شيء ويكفي عبده بما يشاء. الفرق كبير بين طلاب الضمان وطلاب الكفاية. الضمان الذي تتخيله النفس هو أن تسير الأحداث كما تريد، أما الكفاية فهي أن يكون الله معك في كل ما يقدره، يعطيك من العون والهداية والصبر ما تحتاجه لعبوديته.

لهذا لا يعد التوكل الإنسان بأن مشروعه لن يفشل، أو أن جسده لن يمرض، أو أن أحبابه لن يفارقوه. فليست السلامة من كل مرض وفقد وإخفاق وعداً عاماً لكل متوكل في الدنيا. لكنه يفتح باباً أقوى: أن لا يكون العبد متروكاً إلى نفسه، وأن يستطيع أن يرجع في كل حال إلى الوكيل الحي القيوم. حين يفهم القلب هذا، تتغير أسئلته. بدل «كيف أضمن ألا أخسر؟» يسأل «كيف أتصرف بأمانة إن تغيرت الظروف؟». وبدل «كيف أتأكد أن القرار صحيح مئة بالمائة؟» يسأل «هل بذلت ما يكفي من علم ومشاورة؟». وبدل «كيف أمنع كل ألم عن من أحب؟» يسأل «كيف أكون سبب رحمة وأترك ما لا أملكه لله؟». هذه الأسئلة لا تلغي الخوف، لكنها تحوله من سيد إلى إشارة.

وقد يدفع الخوف صاحبه إلى وسيلة محرمة، كالكذب لحماية صفقة، أو التجسس بغير حق لحماية علاقة. هنا لا يصبح الحرام مباحاً لأن غرضك الاطمئنان. أما الحاجة إلى فحص طبي أو احتياطات مباح، فتقدر بميزانها الخاص؛ لا تلحق بالمعصية لمجرد أنها نشأت مع خوف.

كما يحررنا من وعد الناس بما لا نملك. لا تقل لمريض «ستشفى حتماً»، ولا لمهموم «ستحصل على ما تريد بلا شك». قل كلاماً صادقاً: نسأل الله لك الخير، وسنبدل معك السبب، والله أرحم بك. الصدق لا يضعف الرجاء؛ ينقيه من الادعاء.

وفي النهاية، كل سبب نستعمله محدود، وكل علم نملكه ناقص، وكل جسد يفنى. لو كان السلام مشروطاً بكمال الضمان لما ذاقه أحد. لكنه يمكن أن يولد من معرفة أخرى: أن رب الأسباب كامل، وأنك مأمور بما تستطيع، وأن ما خرج عن يدك لم يخرج عن ملكه.

هذه ليست خاتمة حزينة، بل تحرير. لأنك حين تتوقف عن طلب ضمان لا يملكه بشر، تستطيع أخيراً أن تعمل بجد من غير أن تحمل الكون. تفعل ما عليك، وتحب، وتخطط، وتعالج، وتتعلم، ثم تقول بقلاب يعرف حدوده: حسبى الله، ونعم الوكيل.

التوكل ليس نهاية السؤال

كلما ظن الإنسان أنه فهم التوكل جاءه موقف جديد بصيغة أخرى. مرة في مال، ومرة في ولد، ومرة في جسد، ومرة في قرار لا يشربه ما قبله. وهذا طبيعي؛ لأن التوكل ليس مسألة تحفظ جوابها ثم تنتهي، بل علاقة قلب بربه تتجدد مع تغير الحياة.

قد تنجح في باب ثم تضعف في آخر. لا تيأس ولا تتوهم أنك فقدت كل ما تعلمت. عد إلى الأصول: من ربك؟ ما الذي أمرك به؟ ما السبب الذي في يدك؟ وما الذي لا تملكه؟ هذه الأسئلة البسيطة تعيدك إلى الطريق كلما تعقدت التفاصيل. وإذا وجدت نفسك محتاجاً إلى التذكير مرات كثيرة، فهذه ليست فضيحة. الإنسان ينسى، والقلب يتقلب. لذلك تتكرر الأذكار والصلوات والدعوات؛ ليس لأن الحقيقة تتغير، بل لأننا نحن نتغير.

لا تبحث عن لحظة تقول بعدها: لن أقلق أبداً. ابحث عن قدرة أسرع على الرجوع. أن يقل الزمن بين اضطرابك وعودتك إلى الله، وبين خطئك وتصحيحك، وبين خوفك وأخذك بالسبب. هذا تقدم حقيقي وإن بقيت المشاعر بشرية.

ومع آخر صفحة يبقى العمل خارج الكتاب. ستأتيك غداً
مكالمة أو قرار أو خوف، وهناك يبدأ الامتحان الحقيقي. خذ ما
تعلمت معك إلى التفاصيل الصغيرة، لأن القلوب لا تبني في
العبارات وحدها بل في التكرار.

ومن رحمة الله أن الطريق مفتوح كل مرة. مهما تعلق قلبك
بسبب، تستطيع أن تعيده. ومهما تواكلت، تستطيع أن
تقوم. ومهما أخطأت، تستطيع أن تتوب. ما دام العبد يعرف
باب ربه، فالتوكل ليس نهاية السؤال؛ هو الطريق الذي يعود
به كل سؤال إلى مكانه.

كلمة أخيرة قبل الخاتمة

إذا بقي من هذا المجلد معنى واحد، فليكن هذا: ليست مهمتك أن تحمل النتيجة، بل أن تحمل الأمانة. النتيجة في علم الله وتقديره، أما الأمانة ففي نيّتك وسببك وصدقك وعدلك. وحين يخلط الأمران يتعب القلب؛ فيحمل نفسه مسؤولية نتائج لا يملكها، بدل أن يركز على ما يستطيع أدائه.

كلما وجدت هذا التعب، ارجع إلى موضعك الجميل: عبدي عرف ربه، وي بذل ما يستطيع، ويسأل العون، ثم يرضى أن الغيب ليس له. لا تنقصك هذه العبودية؛ هي التي تحررك لتعمل بوضوح وتحب بصدق وتخطئ ثم تصلح.

ومن هنا تبدأ الخاتمة لا كنهاية موضوع، بل كتسليم قلب: يا رب، علمتنا الأسباب فلا تكلنا إليها، وعلمتنا ضعفنا فلا تكلنا إلى أنفسنا، واجعل اعتمادنا عليك صدقاً يثمر طاعة وعملاً ورحمة.

تدريب التوكل ومتابعتة

القراءة تفتح المعنى، ثم تختبره التفاضيل اليومية: وعدت يؤديه، وسيلة تختارها، خوف تطالب معه عوناً، ونتيجة تفوضها إلى الله. هذا الفصل برنامج عملي مقترح لشهر، وفيه ثلاثون ورقة عمل؛ ليست هذه المدة سنة مخصوصة ولا ضماناً لبلوغ منزلة قلبية.

خصص وقتاً يناسب يومك لقراءة الورقة وتنفيذ فعل واحد وتسجيل شاهد قصير. يمكنك الكتابة في نسخة مطبوعة أو في دفتر مستقل. الأمثلة الآتية تمثيلية وليست أخباراً عن أشخاص بعينهم. لا يلزم تنفيذ مثال لا يشبه ظروفيك؛ اختر من واقعك ما يحفظ الغرض والحقوق.

متابعتك هنا للسلوك الممكن، وليست قياً للإيمان أو حكماً بقبول العمل عند الله. لا تقارن نفسك بغيرك، ولا تحول المحاسبة إلى استجواب مرهق. إذا تعلق التدريب بصحة أو أذى أو حق معقد فاطلب المشورة المختصة؛ ولا تتخذ منه خطة علاج أو فتوى لحالة لم تعرض تفاصيلاً.

كيف تستخدم سجل المتابعة؟

اكتب تاريخك والموقف الذي اخترته، ثم نفذ الخطوة وسجل ما وقع فعلياً. استعمل في خانة المتابعة: «تم»، أو «تم بعضه»، أو «لم يتم»، ثم اذكر السبب والخطوة التالية. هذه أوصاف لإنجاز المهمة، لا درجات لقلبك. إن تعذرت خطوة فعدها بما يناسب استطاعتك.

في الأيام السابع والرابع عشر والحادي والعشرين والثامن والعشرين مراجعة أسبوعية، واليوم الثلاثون للمراجعة الختامية وخطة الاستمرار. اقرأ ما كتبت، وابدأ عن شواهد: حق أديت، تأجيل قلماته، سؤال أحسنته، أو مساعدة طلابتها. لا يكفي أن تقول «تحسنت» دون مثال، ولا يعني تعثر يوم أن ما سبق ضاع.

اليوم ١ | بداية صادقة

محور اليوم: تحديد المسؤولية.

اختر شيئاً واحداً يشغلك الآن. اكتب ما تستطيع فعله فيه، وما تستطيع التأثر فيه بمشاركة غيرك، وما لا تملك نتيجته. اختر من القسم الأول عملاً صغيرواً تنجزه اليوم.

مثال تمثيلي: قد ينظر شخص قبول طالب، فيستطيع إكمال مستند ناقص، ولا يستطيع إلزام الجهة بموعد الموافقة.

قبل الفعل: ما مسؤوليتي في هذا الموقف، وما الذي لا أملك نتيجته؟ استعن بالله ثم ابدأ بالخطوة الممكنة.

سجل المتابعة	ملاحظات
التاريخ والموقف	
الخطوة التي اخترتها	
التنفيذ: تم / بعضه / لم يتم	
شاهد مما فعلت	
العائق أو التصحيح المطلوب	

سؤال المراجعة: هل انتقلت من وصف الهم إلى فعل محدد؟ وما الذي بقي خارج قدرتي؟

الخطوة التالية: اكتب عملاً محدداً وموعداً ممكنًا له. اشكر الله على ما تيسر، واستغفر من تقصير تعلمه، ولا تحمّل نفسك نتيجة ليست في يدك.

اليوم ٢ | الاستعانة قبل الحركة

محور اليوم: طلب العون.

قبل عمل معتاد، استحضر حاجتك إلى الله واسأله العون بكلام صادق، ثم ابدأ. سجّل ما كان يعطلك عن البدء، وما الذي احتجت إلى تعلمه أو طلبه من إنسان.

مثال تهمثلي: قدي بدأ طالب مذاكرته بعد إعداد مادة واحدة، بدل ان تظار يوم يخلو من كل مشتت.

قبل الفعل: ما مسؤوليتي في هذا الموقف، وما الذي لا أملك نتيجته؟ استعن بالله ثم ابدأ بالخطوة الممكنة.

سجل المتابعة	ملاحظات
التاريخ والموقف	
الخطوة التي اخترتها	
التنفيذ: تم / بعضه / لم يتم	
شاهد مما فعلت	
العائق أو التصحيح المطلوب	

سؤال المراجعة: هل صحت الدعاء بداية فعلية؟ وما السبب الذي أحسنته؟

الخطوة التالية: اكتب عملاً محدداً وموعداً ممكنًا له. اشكر الله على ما تيسر، واستغفر من تقصير تعلمه، ولا تحمّل نفسك نتيجة ليست في يدك.

اليوم ٣ | السبب المشروع

محور اليوم: تمييز الوسيلة.

راجع وسيلة تستعملها للوصول إلى مطلوبك: هل تعرف حكمها؟ هل تحفظ حق غيورك؟ إن أشكات عليك مسألة فدوّن سؤالاً محدداً لأهل العلم، ولا تتعجل حكماً لتريح نفسك.

مثال تمييزي: قد يراجع بائع وصف السلعة ليتأكد أن العيب معلوم للمشترى قبل إتمام البيع.

قبل الفعل: ما مسؤوليتي في هذا الموقف، وما الذي لا أملك نتيجته؟ استعن بالله ثم ابدأ بالخطوة الممكنة.

سجل المتابعة	ملاحظات
التاريخ والموقف	
الخطوة التي اخترتها	
التنفيذ: تم / بعضه / لم يتم	
شاهد مما فعلت	
العائق أو التصحيح المطلوب	

سؤال المراجعة: هل صحت وسيلة أو سألت عما جهلت؟

الخطوة التالية: اكتب عملاً محدداً وموعداً ممكنًا له. اشكر الله على ما تيسر، واستغفر من تقصير تعلمه، ولا تحمّل نفسك نتيجة ليست في يدك.

اليوم ٤ | ما يكفي للقرار

محور اليوم: حدود البحث.

حدد معلومة مؤثرة ناقصة، ومن يستطيع بيانها. ضع وقتاً مناسباً لجمعها، ثم راجع هل بقي سبب حقيقي للتأجيل. لا تطبق هذا الحد على متابعة طبية أو واجب له نظام خاص.

مثال تمثيلي: قد يسأل متدرب عن محتوى برنامج وتكلفتة قبل اختياره، دون مطالبة الجهة بضمان وظيفية مستقبليّة.

قبل الفعل: ما مسؤوليتي في هذا الموقف، وما الذي لا أملك نتيجته؟ استعن بالله ثم ابدأ بالخطوة الممكنة.

سجل المتابعة	ملاحظات
التاريخ والموقف	
الخطوة التي اخترتها	
التنفيذ: تم / بعضه / لم يتم	
شاهد مما فعلت	
العائق أو التصحيح المطلوب	

سؤال المراجعة: ما المعلومة التي غيرت القرار؟ وما السؤال الذي تكرر بلا إضافة؟

الخطوة التالية: اكتب عملاً محدداً وموعداً ممكناً له. اشكر الله على ما تيسر، واستغفر من تقصير تعلمه، ولا تحمّل نفسك نتيجة ليست في يدك.

اليوم ٥ | المشاورة الأمانة

محور اليوم: حسن السؤال.

اختر أمراً يحتاج رأياً آخر. اعرض الوقائع المؤثرة كما هي، بما فيها ما لا يخدم رغبتك. اسمع الجواب كاملاً قبل الدفاع عن اختيارك، ثم اكتب ما استفدت منه.

مثال تمثيلي: قد يعرض صاحب مشروع المصروفات الفعلية على محاسب، لا المبيعات المتوقعة وحدها.

قبل الفعل: ما مسؤوليتي في هذا الموقف، وما الذي لا أملك نتيجته؟ استعن بالله ثم ابدأ بالخطوة الممكنة.

سجل المتابعة	ملاحظات
التاريخ والموقف	
الخطوة التي اخترتها	
التنفيذ: تم / بعضه / لم يتم	
شاهد مما فعلت	
العائق أو التصحيح المطلوب	

سؤال المراجعة: هل طابعت نصحاً أم موافقة؟ وما الذي عدلت فهمك بسببه؟

الخطوة التالية: اكتب عملاً محدداً وموعداً ممكنًا له. اشكر الله على ما تيسر، واستغفر من تقصير تعلمه، ولا تحمّل نفسك نتيجة ليست في يدك.

اليوم ٦ | خطوة بدل الدوران

محور اليوم: البدء الممكن.

اختر مهمة أجلتها مع قدرتك على بدايتها. جزيها إلى خطوة لا تضيع معها الحقوق، وحدد زمنًا مناسبًا لها. المقصود كسر التأجيل، لا إنهاك نفسك أو إثبات قدرتك للناس.

مثال تمثيلي: قدي بدأ ترتيب دين بكتابة المبالغ والآجال، لا بمحاولة حله كله في جلسة واحدة.

قبل الفعل: ما مسؤوليتي في هذا الموقف، وما الذي لا أملك نتيجته؟ استعن بالله ثم ابدأ بالخطوة الممكنة.

سجل المتابعة	ملاحظات
التاريخ والموقف	
الخطوة التي اخترتها	
التنفيذ: تم / بعضه / لم يتم	
شاهد مما فعلت	
العائق أو التصحيح المطلوب	

سؤال المراجعة: ما الذي أنجزته فعلاً؟ وما العائق الذي يحتاج مساعدة؟

الخطوة التالية: اكتب عملاً محدداً وموعداً ممكنًا له. اشكر الله على ما تيسر، واستغفر من تقصير تعلمه، ولا تحمّل نفسك نتيجة ليست في يدك.

اليوم ٧ | المراجعة الأولى

محور اليوم: مراجعة الأسبوع.

راجع أيامك الستة: حدد عملي أن جزتتهما، وعائقاً تكرر، وقراراً واحداً تحسّن. اختر عادة واحدة تستمر عليها في الأسبوع التالي، وخفف ما لم يناسب واقعك.

مثال تمتثلي: قد يكتشف قارئ أن الوقت الصباحي أنسب لعمله من نهاية يوم مرهق.

قبل الفعل: ما مسؤوليتي في هذا الموقف، وما الذي لا أملك نتيجته؟ استعن بالله ثم ابدأ بالخطوة الممكنة.

سجل المتابعة	ملاحظات
التاريخ والموقف	
الخطوة التي اخترتها	
التنفيذ: تم / بعضه / لم يتم	
شاهد مما فعلت	
العائق أو التصحيح المطلوب	

سؤال المراجعة: ما التغية الذي له شاهد من عملي؟ وما التعديل الذي سألتزم به؟

الخطوة التالية: اكتب عملاً محدداً وموعداً ممكنًا له. اشكر الله على ما تيسر، واستغفر من تقصير تعلمه، ولا تحمّل نفسك نتيجة ليست في يدك.

اليوم ٨ | الرزق والصدق

محور اليوم: حفظ الأمانة.

راجع موقفاً مالياً صغيرواً: فاتورة أو بيعاً أو وعداً أو عملاً مدفوعاً. صحح بياناً ناقصاً أو تأخيراً تستطيع تداركه. لا تجعل احتمال فوات مكسب حجة لإخفاء حق.

مثال تمثيلي: قدي بلغ عامل عميله بتأخير متوقع قبل الموعد، ويعرض بديلاً ممكناً بصدق.

قبل الفعل: ما مسؤوليتي في هذا الموقف، وما الذي لا أملك نتيجته؟ استعن بالله ثم ابدأ بالخطوة الممكنة.

سجل المتابعة	ملاحظات
التاريخ والموقف	
الخطوة التي اخترتها	
التنفيذ: تم / بعضه / لم يتم	
شاهد مما فعلت	
العائق أو التصحيح المطلوب	

سؤال المراجعة: هل حفظت حق الطرف الآخر ولو شق ذلك علي؟

الخطوة التالية: اكتب عملاً محدداً وموعداً ممكناً له. اشكر الله على ما تيسر، واستغفر من تقصير تعلمه، ولا تحمّل نفسك نتيجة ليست في يدك.

اليوم ٩ | النفقة والادخار

محور اليوم: ترتيب الحقوق.

دَوْنْ دخلك المعروف والتزاماتك القرية. ميّز الضروري مما يمكن تأجيله، وحدد إجراءً واحدًا يحفظ حقاً. إن كانت المشكلة معقدة فاستعن بمن يملك الخبرة المناسبة.

مثال تمثيلي: قد تلغي أسرة نفقة اختيارية كي تفي بالتزام متفق عليه، دون لوم أفرادها أو إخفاء الوضع عن يلزمه علمه.

قبل الفعل: ما مسؤوليتي في هذا الموقف، وما الذي لا أملك نتيجته؟ استعن بالله ثم ابدأ بالخطوة الممكنة.

سجل المتابعة	ملاحظات
التاريخ والموقف	
الخطوة التي اخترتها	
التنفيذ: تم / بعضه / لم يتم	
شاهد مما فعلت	
العائق أو التصحيح المطلوب	

سؤال المراجعة: ما الحق الذي قدمته؟ وهل بنيت الخطة على الواقع؟

الخطوة التالية: اكتب عملاً محدداً وموعداً ممكنًا له. اشكر الله على ما تيسر، واستغفر من تقصير تعلمه، ولا تحمّل نفسك نتيجة ليست في يدك.

اليوم ١٠ | شكر السبب

محور اليوم: الامتنان دون مبالغة.

اذكر شخصاً أعانك، واشكره بكلام محدد. ثم اكتب حدود ما يستطيع تقديمه، حتى لا تحمله مسؤولية كل راحتك أو مستقبلك. شكر الخلق يصحب شكر الله.

مثال تمثيلي: قدي شكر طالب معلمه على شرح مسألة، مع فهمه أن التعلم يحتاج جهده هو أيضاً.

قبل الفعل: ما مسؤوليتي في هذا الموقف، وما الذي لا أملك نتيجته؟ استعن بالله ثم ابدأ بالخطوة الممكنة.

سجل المتابعة	ملاحظات
التاريخ والموقف	
الخطوة التي اخترتها	
التنفيذ: تم / بعضه / لم يتم	
شاهد مما فعلت	
العائق أو التصحيح المطلوب	

سؤال المراجعة: هل كان شكري واضحاً؟ وهل طابعت من المساعد ما يتجاوز قدرته؟

الخطوة التالية: اكتب عملاً محدداً وموعداً ممكنًا له. اشكر الله على ما تيسر، واستغفر من تقصير تعلمه، ولا تحمّل نفسك نتيجة ليست في يدك.

اليوم ١١ | المتابعة في موعدها

محور اليوم: تنظيم الان تظار.

اختر أمراً تن تظر جوابه. حدد موعد متابعة معقولاً بناءً على طبيعته، وعملاً حاضراً تعود إليه بين المواعيد. إن ظهر خطر عاجل أو معلومة مؤثرة فلا تؤجل الإجراء اللازم.

مثال تمثيلي: قدي تابع طالب منحة طلابه في الموعد المعلن، ويستمّر في تعلمه وتجهيز خياراته الأخرى.

قبل الفعل: ما مسؤوليتي في هذا الموقف، وما الذي لا أملك نتيجته؟ استعن بالله ثم ابدأ بالخطوة الممكنة.

سجل المتابعة	ملاحظات
التاريخ والموقف	
الخطوة التي اخترتها	
التنفيذ: تم / بعضه / لم يتم	
شاهد مما فعلت	
العائق أو التصحيح المطلوب	

سؤال المراجعة: كم مرة عدت للمتابعة دون جديدي؟ وما العمل الذي حفظته من الان تظار؟

الخطوة التالية: اكتب عملاً محدداً وموعداً ممكنًا له. اشكر الله على ما تيسر، واستغفر من تقصير تعلمه، ولا تحمّل نفسك نتيجة ليست في يدك.

اليوم ١٢ | الأرقام وحدودها

محور اليوم: القياس النافع.

اختر مؤشراً تراجعته كثيراً. اكتب ما يقيسه وما لا يقيسه، والقرار الذي تستفيد فيه منه. اجعل القياس خادماً للعمل، واتبع توجيّه المختص فيما يتعلق بالصحة.

مثال تمثيلي: قد يقيس متجر سرعة التسليم، لكنه يحتاج كذلك أن يراجع سلامة المنتج ورضا صاحب الحق.

قبل الفعل: ما مسؤوليتي في هذا الموقف، وما الذي لا أملك نتيجته؟ استعن بالله ثم ابدأ بالخطوة الممكنة.

سجل المتابعة	ملاحظات
التاريخ والموقف	
الخطوة التي اخترتها	
التنفيذ: تم / بعضه / لم يتم	
شاهد مما فعلت	
العائق أو التصحيح المطلوب	

سؤال المراجعة: هل قاد الرقم إلى تصحيح محدد أم إلى انشغال فقط؟

الخطوة التالية: اكتب عملاً محدداً وموعداً ممكنًا له. اشكر الله على ما تيسر، واستغفر من تقصير تعلمه، ولا تحمّل نفسك نتيجة ليست في يدك.

اليوم ١٣ | معلومة موثوقة

محور اليوم: التثبت قبل النقل.

قبل نشر خبر مخيف، راجع مصدره وتاريخه وسياقه. إذا لم يتبين لك ثبوته فلا تنقله بصيغة الجزم. اختر عملاً نافعاً يناسب ما ثبت، بدل متابعة التهويل.

مثال تمثيلي: قد تصل رسالة قديمة عن إغلاق خدمة، فيتحقق القارئ من إعلان الجهة قبل إعادة إرسالها.

قبل الفعل: ما مسؤوليتي في هذا الموقف، وما الذي لا أملك نتيجته؟ استعن بالله ثم ابدأ بالخطوة الممكنة.

سجل المتابعة	ملاحظات
التاريخ والموقف	
الخطوة التي اخترتها	
التنفيذ: تم / بعضه / لم يتم	
شاهد مما فعلت	
العائق أو التصحيح المطلوب	

سؤال المراجعة: ما الذي تحققت منه؟ وما الرسالة التي امتنعت عن نشرها؟

الخطوة التالية: اكتب عملاً محدداً وموعداً ممكنًا له. اشكر الله على ما تيسر، واستغفر من تقصير تعلمه، ولا تحمّل نفسك نتيجة ليست في يدك.

اليوم ١٤ | المراجعة الثانية

محور اليوم: الأمانة تحت القلق.

راجع ما فعلت في المال والانتظار والأخبار. حدد موقفًا دفعك فيه الخوف إلى قرار مستعجل، وموقفًا حفظت فيه الأمانة. اكتب تعديلاً واحدًا قابلاً للتطبيق.

مثال تهمتي لي: قدي قرر قارئ أن يجمع أسئلته للجهة في رسالة واضحة بدل رسائل متلاحقة لا تحمل جدياً.

قبل الفعل: ما مسؤوليتي في هذا الموقف، وما الذي لا أملك نتيجته؟ استعن بالله ثم ابدأ بالخطوة الممكنة.

سجل المتابعة	ملاحظات
التاريخ والموقف	
الخطوة التي اخترتها	
التنفيذ: تم / بعضه / لم يتم	
شاهد مما فعلت	
العائق أو التصحيح المطلوب	

سؤال المراجعة: ما السلوك الذي أريد تخفيفه؟ وما البديل العملي؟

الخطوة التالية: اكتب عملاً محدداً وموعداً ممكنًا له. اشكر الله على ما تيسر، واستغفر من تقصير تعلمه، ولا تحمّل نفسك نتيجة ليست في يدك.

اليوم ١٥ | الخوف والخطوة الآمنة

محور اليوم: تقدير الموقف.

سمّ ما تخافه بقدر ما تعرف، ثم حدد الإجراء الآمن المناسب. لا تختبر توكلك بتعمد الخطر، ولا تؤخر طلب الحماية الضرورية. اطلب المساعدة إذا كانت المسألة فوق خبرتك.

مثال تمثيلي: قد يحفظ موظف رسالة تهديد ويطلب المشورة والحماية عبر قناة موثوقة بدل مواجهة من فردة.

قبل الفعل: ما مسؤوليتي في هذا الموقف، وما الذي لا أملك نتيجته؟ استعن بالله ثم ابدأ بالخطوة الممكنة.

سجل المتابعة	ملاحظات
التاريخ والموقف	
الخطوة التي اخترتها	
التنفيذ: تم / بعضه / لم يتم	
شاهد مما فعلت	
العائق أو التصحيح المطلوب	

سؤال المراجعة: هل فرقت بين الاحتمال والخطر الحاضر؟ ومن يستطيع مساعدتي؟

الخطوة التالية: اكتب عملاً محدداً وموعداً ممكناً له. اشكر الله على ما تيسر، واستغفر من تقصير تعلمه، ولا تحمّل نفسك نتيجة ليست في يدك.

اليوم ١٦ | العافية والرعاية

محور اليوم: رحمة الجسد.

رتب أمراً في رعايتك أو رعاية من تعول وفق ما أوصى به المختص: سؤالاً لم تفهمه، أو موعداً، أو معلومة تحتاج تحديداً. لا تبدأ علاجاً أو توقفه بسبب تمرين في هذا الكتاب.

مثال تمثيلي: قد تكتب ابنة أسيئة والدتها قبل موعدها، وتؤكد من فهم التعليمات من الفريق الطبي.

قبل الفعل: ما مسؤوليتي في هذا الموقف، وما الذي لا أملك نتيجته؟ استعن بالله ثم ابدأ بالخطوة الممكنة.

سجل المتابعة	ملاحظات
التاريخ والموقف	
الخطوة التي اخترتها	
التنفيذ: تم / بعضه / لم يتم	
شاهد مما فعلت	
العائق أو التصحيح المطلوب	

سؤال المراجعة: هل سهلت الوصول إلى الرعاية؟ وما السؤال الذي ما زال يحتاج جواباً؟

الخطوة التالية: اكتب عملاً محدداً وموعداً ممكنًا له. اشكر الله على ما تيسر، واستغفر من تقصير تعلمه، ولا تحمّل نفسك نتيجة ليست في يدك.

اليوم ١٧ | قبول المساعدة

محور اليوم: طلب واضح.

حدد مساعدة مباحة تحتاجها، واطلبها بوضوح من شخص مناسب، مع احترام قدرته على القبول أو الاعتذار. بين ما ستفعله أنت وما تطلبه منه تحديداً.

مثال تمثيلي: قد يطلب مقدم رعاية من قريبي مرافقة المريض في موعد واحد، بدل أن ينتظر منه إدراك كل حاجاته دون بيان.

قبل الفعل: ما مسؤوليتي في هذا الموقف، وما الذي لا أملك نتيجته؟ استعن بالله ثم ابدأ بالخطوة الممكنة.

سجل المتابعة	ملاحظات
التاريخ والموقف	
الخطوة التي اخترتها	
التنفيذ: تم / بعضه / لم يتم	
شاهد مما فعلت	
العائق أو التصحيح المطلوب	

سؤال المراجعة: هل كان طابقي محدداً؟ وكيف حفظت حق المساعد وحدوده؟

الخطوة التالية: اكتب عملاً محدداً وموعداً ممكنًا له. اشكر الله على ما تيسر، واستغفر من تقصير تعلمه، ولا تحمّل نفسك نتيجة ليست في يدك.

اليوم ١٨ | المحبة بلا سيطرة

محور اليوم: حفظ حدود العلاقة.

اختر علاقة آمنة فيها نصح متكرر. اسأل ما واجبك وما مساحة اختياري الطرف الآخر. أدّ واجباً واحداً من جانبك، ثم اترك له مساحة جواب دون استجواب متلاحق.

مثال تمثيلي: قد يسمع والد من ابنه البالغ أسباب اختياري تخصص، ثم يقرّح مشورة يعرفان مجالها.

قبل الفعل: ما مسؤوليتي في هذا الموقف، وما الذي لا أملك نتيجته؟ استعن بالله ثم ابدأ بالخطوة الممكنة.

سجل المتابعة	ملاحظات
التاريخ والموقف	
الخطوة التي اخترتها	
التنفيذ: تم / بعضه / لم يتم	
شاهد مما فعلت	
العائق أو التصحيح المطلوب	

سؤال المراجعة: هل سمعت كما أردت أن أسمع؟ وما الحد الذي احترمته؟

الخطوة التالية: اكتب عملاً محدداً وموعداً ممكنًا له. اشكر الله على ما تيسر، واستغفر من تقصير تعلمه، ولا تحمّل نفسك نتيجة ليست في يدك.

اليوم ١٩ | الاعتذار والإصلاح

محور اليوم: الرجوع عن الخطأ.

اذكر خطأ تعرفه من نفسك. اعتذر عنه بقدر مناسب، ورد حقاً إن وجب، أو ضع أول خطوة ممكنة لإصلاحه. لا تجعل اعتراف الطرف الآخر بخطئه شرطاً لاعتذارك.

مثال تمثيلي: قد يصح مسؤول نسبة فكرة إلى نفسه ويذكر صاحبها أمام من سمع النسبة الخطأ.

قبل الفعل: ما مسؤولي تي في هذا الموقف، وما الذي لا أملك نتيجته؟ استعن بالله ثم ابدأ بالخطوة الممكنة.

سجل المتابعة	ملاحظات
التاريخ والموقف	
الخطوة التي اخترتها	
التنفيذ: تم / بعضه / لم يتم	
شاهد مما فعلت	
العائق أو التصحيح المطلوب	

سؤال المراجعة: هل كان الاعتذار واضحاً بلا تبرير للضرر؟ وما أثر يحتاج متابعة؟

الخطوة التالية: اكتب عملاً محدداً وموعداً ممكنًا له. اشكر الله على ما تيسر، واستغفر من تقصير تعلمه، ولا تحمّل نفسك نتيجة ليست في يدك.

اليوم ٢٠ | المهمة المشتركة

محور اليوم: وضوح التفويض.

اختر مهمة يشترك فيها أكثر من شخص. وضح المطلوب والموعد وصاحب الدور وحدود الصلاحية، واتفقوا على طريقة متابعة تناسب أهميتها. لا تستخدم التفويض لإسقاط حق بقي عليك.

مثال تمثيلي: قد تحدد أسرة من يحجز الموعد ومن يرافق ومن يبلغ الجميع بأي تغيير.

قبل الفعل: ما مسؤوليتي في هذا الموقف، وما الذي لا أملك نتيجته؟ استعن بالله ثم ابدأ بالخطوة الممكنة.

سجل المتابعة	ملاحظات
التاريخ والموقف	
الخطوة التي اخترتها	
التنفيذ: تم / بعضه / لم يتم	
شاهد مما فعلت	
العائق أو التصحيح المطلوب	

سؤال المراجعة: هل عرف كل شخص دوره؟ وأين بقي غموض؟

الخطوة التالية: اكتب عملاً محدداً وموعداً ممكنًا له. اشكر الله على ما تيسر، واستغفر من تقصير تعلمه، ولا تحمّل نفسك نتيجة ليست في يدك.

اليوم ٢١ | المراجعة الثالثة

محور اليوم: الحقوق في العلاقات.

راجع أيام الرعاية والعلاقات والتعاون. اختر حقاً حفظته، وموقفاً تجاوزت فيه حدودك، ومساعدة احتجت إليها. اجعل خطة الأسبوع التالي رحيمة بك وبمن معك.

مثال تمثيلي: قد يقرر قارئ استبدال متابعة يومية مرهقة بموعد حوار متفق عليه، ما دام ذلك يحفظ المسؤولية.

قبل الفعل: ما مسؤوليتي في هذا الموقف، وما الذي لا أملك نتيجته؟ استعن بالله ثم ابدأ بالخطوة الممكنة.

سجل المتابعة	ملاحظات
التاريخ والموقف	
الخطوة التي اخترتها	
التنفيذ: تم / بعضه / لم يتم	
شاهد مما فعلت	
العائق أو التصحيح المطلوب	

سؤال المراجعة: أي تغيير قلل نزاعاً أو وضح حقاً؟ وما الدليل؟

الخطوة التالية: اكتب عملاً محدداً وموعداً ممكنًا له. اشكر الله على ما تيسر، واستغفر من تقصير تعلمه، ولا تحمّل نفسك نتيجة ليست في يدك.

اليوم ٢٢ | قرار بعد الاستخارة

محور اليوم: العمل بما ترجح.

في أمر مباح يحتاج قرارًا، اجمع المعلومات اللازمة واستشر وصل الاستخارة. لا تجعل رؤيا شرطًا للحركة، ولا تجعل الدعاء حجة لتجاهل عيب ظاهر أو حق للآخرين.

مثال تمثيلي: قد يختر متقدم عرض عمل بعد مراجعة مهامه وشروطه ومشاوره من يفهم حاله.

قبل الفعل: ما مسؤوليتي في هذا الموقف، وما الذي لا أملك نتيجته؟ استعن بالله ثم ابدأ بالخطوة الممكنة.

سجل المتابعة	ملاحظات
التاريخ والموقف	
الخطوة التي اخترتها	
التنفيذ: تم / بعضه / لم يتم	
شاهد مما فعلت	
العائق أو التصحيح المطلوب	

سؤال المراجعة: ما أسباب الترجيح؟ وما الحقيقة التي تستدعي مراجعة القرار؟

الخطوة التالية: اكتب عملاً محدداً وموعداً ممكنًا له. اشكر الله على ما تيسر، واستغفر من تقصير تعلمه، ولا تحمّل نفسك نتيجة ليست في يدك.

اليوم ٢٣ | تصحيح الخطأ

محور اليوم: المرونة المنضبطة.

راجع خطة واجهت عائقاً. ميز بين معلومة جديدة تؤثر فيها وبين قلق يعيد الاحتمال نفسه. عدل جزءاً محدداً إذا لزم، وبين سبب التعديل لمن يتأثر به.

مثال تمثيلي: قد يؤدي فريقي نشأاً بسبب تعطل مكانه، ويبلغ المشاركون بوقت بديل ممكن.

قبل الفعل: ما مسؤوليتي في هذا الموقف، وما الذي لا أملك نتيجته؟ استعن بالله ثم ابدأ بالخطوة الممكنة.

سجل المتابعة	ملاحظات
التاريخ والموقف	
الخطوة التي اخترتها	
التنفيذ: تم / بعضه / لم يتم	
شاهد مما فعلت	
العائق أو التصحيح المطلوب	

سؤال المراجعة: ما الذي تغير في الواقع؟ وهل حافظ التعديل على الحقوق؟

الخطوة التالية: اكتب عملاً محدداً وموعداً ممكنًا له. اشكر الله على ما تيسر، واستغفر من تقصير تعلمه، ولا تحمّل نفسك نتيجة ليست في يدك.

اليوم ٢٤ | الفشل والتعلم

محور اليوم: مراجعة عادلة.

اختر تجربة لم تحقق مرادك. اكتب ما كنت تعرفه وقت القرار، وما عرفتة بعده. حدد خطأ يمكنك إصلاحه دون أن تجعل كل ما حدث ذنباً لك أو حكماً على قيمتك.

مثال تمثيلي: قديتغير موعد برنامج بعد التسجيل؛ فيبحث المتدرب عن حقه دون لوم نفسه على أمر لم يكن معلناً.

قبل الفعل: ما مسؤوليتي في هذا الموقف، وما الذي لا أملك نتيجته؟ استعن بالله ثم ابدأ بالخطوة الممكنة.

سجل المتابعة	ملاحظات
التاريخ والموقف	
الخطوة التي اخترتها	
التنفيذ: تم / بعضه / لم يتم	
شاهد مما فعلت	
العائق أو التصحيح المطلوب	

سؤال المراجعة: ما الدرس القابل للتطبيق؟ وما الذي لم يكن في وسعي؟

الخطوة التالية: اكتب عملاً محدداً وموعداً ممكنًا له. اشكر الله على ما تيسر، واستغفر من تقصير تعلمه، ولا تحمّل نفسك نتيجة ليست في يدك.

اليوم ٢٥ | النجاح والشكر

محور اليوم: التواضع بعد الإنجاز.

اختر نجاحاً صغيئاً. احمء الله؁ واذكر جهد من ساعد؁ وحدد حقاً تؤءيه بسبب ما تي سر لك. ثم راجع نقطة تحسنيؑ فالنجاح لا يعني أن كل قرار كان كاملاً.

مثال تمثيلي: قءي شكر قائء فريق زملاءه بأسمائهم وي تابع حقهم المتفق عليه بءل الاكتفاء بالثناء العام.

قبل الفعل: ما مسؤولي تي في هذا الموقف؁ وما الذي لا أملك نتيجته؟ استعن بالله ثم اءءأ بالخطوة الممكنة.

سجل المتابعة	ملاحظات
التاريخ والموقف	
الخطوة التي اخترتها	
التنفيء: تم / بعضه / لم يتم	
شاهد مما فعلت	
العايق أو التصحيح المطلوب	

سؤال المراجعة: هل ترجم الشكر إلى فعل؟ وما الذي لا أنسبه إلى مهارتي وءءها؟

الخطوة التالية: اكتب عملاً مءءاً وموعءاً ممكنً له. اشكر الله على ما تيسر؁ واستغفر من تقصير تعلمه؁ ولا تحمّل نفسك نتيجة ليست في يءك.

اليوم ٢٦ | الماضي وما بقي منه

محور اليوم: التمييز بين الندم والإصلاح.

دَوْنُ أمرٍ من الماضي يعود إلى ذهنك. إن بقي فيه حق أو ضرر فحدد ما يلزم لإصلاحه بضرورة مناسبة عند الحاجة. وإن لم يبق فعل ممكن فعد إلى واجب حاضر بديل إعادة المشهد وحده.

مثال توثيقي: قد يسد شخص مبلغاً قديماً أو يطلاب وسيلة آمنة لإيصال الحق، ثم يتعلم توثيق التزاماته.

قبل الفعل: ما مسؤوليتي في هذا الموقف، وما الذي لا أملك نتيجته؟ استعن بالله ثم ابدأ بالخطوة الممكنة.

سجل المتابعة	ملاحظات
التاريخ والموقف	
الخطوة التي اخترتها	
التنفيذ: تم / بعضه / لم يتم	
شاهد مما فعلت	
العائق أو التصحيح المطلوب	

سؤال المراجعة: هل نتج عن المراجعة فعل؟ وما الباب الذي يحتاج سؤالاً؟

الخطوة التالية: اكتب عملاً محدداً وموعداً ممكنًا له. اشكر الله على ما تيسر، واستغفر من تقصير تعلمه، ولا تحمّل نفسك نتيجة ليست في يدك.

اليوم ٢٧ | المساء وموعد الغد

محور اليوم: إنهاء عمل اليوم.

قبل الراحة رتب ما بقي: أمر يحتاج توبة أو إصلاحًا، ومهمة لها موعد غداً، ونتيجة لا تملكها الآن. اكتب الخطوة المقبلة بإيجاز ثم اقرأ أذكارك الثابتة.

مثال تمثيلي: قدي سجل عامل اتصالاً لازماً للصباح بدل العودة إلى ملف العمل كلما خطر بباله.

قبل الفعل: ما مسؤوليتي في هذا الموقف، وما الذي لا أملك نتيجته؟ استعن بالله ثم ابدأ بالخطوة الممكنة.

سجل المتابعة	ملاحظات
التاريخ والموقف	
الخطوة التي اخترتها	
التنفيذ: تم / بعضه / لم يتم	
شاهد مما فعلت	
العائق أو التصحيح المطلوب	

سؤال المراجعة: هل عرفت أول خطوة للغد؟ وهل أعطيت الراحة حقها؟

الخطوة التالية: اكتب عملاً محدداً وموعداً ممكنًا له. اشكر الله على ما تيسر، واستغفر من تقصير تعلمه، ولا تحمّل نفسك نتيجة ليست في يدك.

اليوم ٢٨ | المراجعة الرابعة

محور اليوم: الاستمرار الواقعي.

راجع قرارات الأسبوع الأخير. اكتب شاهدين على تحسن سلوكك وعائقاً يحتاج عوناً. اختر ما تستطيع الاستمرار عليه دون أن يصبغ التسجيل نفسه عبئاً أو طاباً لكامل لا تملكه.

مثال تمثيلي: قد يكتفي قارئ بمراجعة أسبوعية لأماناته، ويترك التسجيل اليومي إذا لم يعد يخدمه.

قبل الفعل: ما مسؤوليتي في هذا الموقف، وما الذي لا أملك نتيجته؟ استعن بالله ثم ابدأ بالخطوة الممكنة.

سجل المتابعة	ملاحظات
التاريخ والموقف	
الخطوة التي اخترتها	
التنفيذ: تم / بعضه / لم يتم	
شاهد مما فعلت	
العائق أو التصحيح المطلوب	

سؤال المراجعة: ما الذي استقر في عملي؟ وما الذي أحتاج تخفيفه أو تطويره؟

الخطوة التالية: اكتب عملاً محدداً وموعداً ممكنًا له. اشكر الله على ما تيسر، واستغفر من تقصير تعلمه، ولا تحمّل نفسك نتيجة ليست في يدك.

اليوم ٢٩ | موقف متكامل

محور اليوم: جمع ما تعلمت.

اختر موقفاً واحداً يجمع قصداً وسبباً وحقاً ونتيجة غير مضمونة. قبل الفعل صحح النية، وأثناءه أحسن ما تستطيع، وبعده اشكر أو اصبر وتعلم. اكتب ما جرى دون تجميل.

مثال تمثيلي: قد ينجز شخص طلباً لحقه ببيان صادق ومتابعة مناسبة، ويحتمل تأخر الجواب دون ظلم أحد.

قبل الفعل: ما مسؤوليتي في هذا الموقف، وما الذي لا أملك نتيجته؟ استعن بالله ثم ابدأ بالخطوة الممكنة.

سجل المتابعة	ملاحظات
التاريخ والموقف	
الخطوة التي اخترتها	
التنفيذ: تم / بعضه / لم يتم	
شاهد مما فعلت	
العائق أو التصحيح المطلوب	

سؤال المراجعة: أين ظهر الاعتماد في فعلي؟ وما الخطوة التي بقيت؟

الخطوة التالية: اكتب عملاً محدداً وموعداً ممكناً له. اشكر الله على ما تيسر، واستغفر من تقصير تعلمه، ولا تحمّل نفسك نتيجة ليست في يدك.

اليوم ٣٠ | خطة ما بعد الشهر

محور اليوم: تقييم السلوك والمتابعة.

قارن وصفك في اليوم الأول بعملك اليوم. اختر ثلاث عادات نافعة فقط، وحدد موعدًا لمراجعتها وشرحًا تستشيره عند الحاجة. إن فاتتك أيام فلا تعد البداية عقوبة؛ أكمل بما يناسب قدرتك.

مثال تمثيلي: قد يخترق قارئ وضوح الالتزامات، والاستعانة قبل العمل، ومراجعة أسبوعية للحقوق، ويجعلها خطته للشهر المقبل.

قبل الفعل: ما مسؤوليتي في هذا الموقف، وما الذي لا أملك نتيجته؟ استعن بالله ثم ابدأ بالخطوة الممكنة.

سجل المتابعة	ملاحظات
التاريخ والموقف	
الخطوة التي اخترتها	
التنفيذ: تم / بعضه / لم يتم	
شاهد مما فعلت	
العائق أو التصحيح المطلوب	

سؤال المراجعة: ما شواهد التغيير؟ وما العادة التي سأحافظ عليها في ظرف صعب؟

الخطوة التالية: اكتب عملاً محدداً وموعداً ممكنًا له. اشكر الله على ما تيسر، واستغفر من تقصير تعلمه، ولا تحمّل نفسك نتيجة ليست في يدك.

خاتمة

التوكل ليس باباً نغلقه بعد أن نفهم تعريفيه. هو عبادة تتجدد كلما ظهرت حاجة، أو تحرك خوف، أو وقفنا أمام قرار. نحتاجه في الطاعة أكثر مما نحتاجه في الدنيا؛ لأن أعظم ما نسأل الله أن يعيننا عليه أن نعبدَه حتى نلقاه.

وقد رأينا أن الأسباب لا تناقض التوكل. أمر الله بالمشاورة، ومدح العزم، وحكى احتياطي يعقوب عليه السلام، وأمر مريم عليها السلام أن تهز الجذع، وجاءت هجرة النبي ﷺ في خطة كاملة. ورأينا أن النتيجة لا يملكها العبد، وأن الكفاية ليست دائماً الصورة التي رسمها.

إذا أردت أن تختصر الكتاب في عمل واحد، فاجعل لكل أمر ثلاث وقفات: قبل العمل اسأل عن حكمه واستعن بالله، وأثنائه أحسن السبب ولا تركزن إليه، وبعده أحمد الله أو اصبر وتعلم وسلم. بهذا لا يصبح القدر حجة للكسل، ولا يصبح العمل باباً للعجب.

اللهم إنا توكلنا عليك، وإليك أنبنا، وإليك المصير. أصلح نياتنا، وأعنا على طاعتك، واكفنا بحلالك عن حرامك، واغننا بفضلك عن سواك. اللهم لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، واهدنا لأحسن الأعمال والأخلاق، وارض عنا والدينا، وصل وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

البخاري، محمد بن إسماعيل، الجامع المسند الصحيح. أرقام الروايات وأبوابها في الحواشي.

مسلم بن الحجاج، المسند الصحيح. أرقام الروايات وأبوابها في الحواشي.

الترمذي، محمد بن عيسى، الجامع. أرقام الروايات وأبوابها في الحواشي.

ابن كثير، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، عند الآيات المحال إليها.

ابن القيم، محمد بن أبي بكر، مدارج السالكين، منزلة اليقين، ٢/٣٧٥.

ابن باز، عبد العزيز بن عبد الله، جواب «معنى حديث فمن رضي فله الرضا»، رقم ٢١٤٣٤.